الفهرس

م	الموضوع	الصفحة من	الصفحة إلى
١	**مقدمة :**	١٧	٢٦
٢	**تمهيد :** الطبيعة في شعر مطران	٢٧	٤٥
٣	**الفصل الأول:** مطران: حياته وشعره	٤٦	٦٤
٤	**الفصل الثاني:** مظاهر الطبيعة عند مطران	٦٥	١٠٦
٥	**الفصل الثالث:** الخصائص الفنية لشعره في الطبيعة	١٠٧	١٤٩
٦	**الفصل الرابع:** شعر الطبيعة عند مطران بين التأثر والتأثير	١٥٠	١٧٩
٧	**الخاتمة**	١٨٠	١٨٤
٨	**ثبت بمصادر البحث ومراجعه**	١٨٥	١٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

شهد الأدب تطوراً واسعاً في مضامينه وأشكاله منذ مطلع القرن العشرين فى أعقاب النهضة الحديثة التي بدأت مع إطلالة القرن التاسع عشر إثر اتصال الآداب العربية بالآداب الأجنبية عن طريق المبعوثين العرب الذين استفادوا وأفادوا من أمثال (رفاعة الطهطاوي) وغيره.

ثم كانت حركة البعث والإحياء التي رادها البارودي مظهراً من مظاهر هذا التطور الذي حدث في الأدب العربي ثم ظهور المدارس الشعرية المختلفة التي أخذت تؤدى دورها وفق مفهوم أصحابها للشعر ورسالته.

١- فمن محافظين اتخذوا النمط العربي المشرق مثلا أعلى في الأسلوب الشعري. هذا النمط الذي تمثله النماذج الرائعة من الشعر التي ورثناها من أعلام الشعراء وفحولتهم في المشرق والأندلس من أمثال: أبى تمام والبحتري والصنوبري من المشارقة، وابن زيدون وابن خفاجة وابن هانئ وأمثالهم من الشعراء في الأندلس. مع إبراز الجانب البياني في الشعر بشكل واضح والاعتماد عليه أساساً عنصراً من عناصر الجمال فيه.

ولهذا فهم يعرضون في القصيدة أغراضا شتى مع تمهيد للانتقال

من غرض إلى غرض وتهيئة له ملتزمين بوحدة الوزن والقافية إلى جانب تناولهم الصور الحية التي تتراءى فيها الحياة السياسية والاجتماعية وتنعكس عليها مشاهدهم النفسية.

وقد سار في هذا الاتجاه بعد البارودي كثير من الشعراء في سائر أنحاء الوطن العربي.

ففي مصر: إسماعيل صبري، وأحمد شوقي، حافظ إبراهيم، ومحمد عبد المطلب، وأحمد الكاشف، وأحمد مكرم، وعلى الغاياتى، وفى العراق: معروف الرصافى، وجميل صدقي الزهاوى وفى الشام: إبراهيم اليازجي، وشفيق جبرى، وغيرهم ممن تأثروا بحركة البعث الشعرى المعاصر وآثروا النظام التقليدى فى قصائدهم فاتخذوه وسيلة تعبير عن حياتهم الخاصة وأحاسيسهم الذاتية، ثم عن قضايا وطنهم، ومشكلات أوطانهم القومية.

٢- ومن إبداعيين مجددين فى الشكل والمضمون، فمن حيث المضمون نظروا إلى الطبيعة على أنها كائن حى، وأن على الشاعر أن ينفذ إلى جوهر الحقائق لا إلى ظواهرها، فإن خلف ظواهر العالم المحيط بنا حقائق روحية غير مرئية، وإذا كنا لا نستطيع أن ندرك هذه الحقائق إدراكاً فإن الشاعر وحده هو الذى يستطيع أن يكشف عن هذه الحقائق الروحية معتمداً على خياله، ومن هنا فقد أولوا الخيال عناية كبرى، وهم كذلك يرون أنه يجب أن يفهم الشعر على أساس أنه تعبير عن العالم الداخلى للشعر ومن ثم تعبير عن رؤيته

شعوره وإحساساته ويعرضها بمعانيها نابضة بالحياة.

وبقدر عمق استيعاب الفنان للطبيعة وإبرازه لها وعرضه لإحساساته ومشاعره نحوها تعلو منزلته ويكون لفنه قيمة.

أما من حيث الشكل فقد رأوا أن القصيدة ينبغى أن تؤخذ فى جملتها من حيث التركيب الكلى لا من حيث هى مجموع الأبيات يستهوى بعضها القارئ فيتعلق به ويطرح سائرها فالقصيدة ينبغى أن تكون عملا فنياً تأما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها، واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل جسم منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغنى عنه غيره فى موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكلف أو القلب عن المعدة[١]

وأنه ليس بلازم أن تسير القصيدة على النمط التقليدى من حيث رعاية الوزن والقافية إذا كان ذلك يعوق القصيد عن أداء رسالته، وإنما فى إمكان الشاعر أن يخرج عن هذا القيد بان يقسم القصيدة إلى مقاطع، كل مقطع يمثل وحدة بنائية معنوية تحل محل وحدة البيت مع التزام الوزن فى كل مقطع، إذ اعتبروا أن الشاعرية هى الأصل ولها أن تستعين بالأوزان والقوافى لتكون لها تلك النبرات

---

١) الديوان فى الأدب والنقد ص١٣٠ عباس محمود العقاد بالاشتراك مع إبراهيم المازنى، الطبعة الثالثة، دار الشعب ١٩٧٢م

الموسيقية التى تميز الشعر عن بقية ضروب الكلام.

وكان أصحاب هذا الاتجاه ممن تعمقوا فى دراسة الآداب والثقافة الأوربية وتغلغلت فى مسارب نفوسهم النزعة الرومانسية من أمثال: عبد الرحمن شكرى، وعبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد، وشكيب أرسلان، وبشارة الخورى، وخليل مردم.

الذين رأوا الاتجاه المحافظ اتجاها تقليديا اتباعياً لا ينهض برسالة الشعر من حيث إنه يقوم على أساس من القوالب والتراكيب التى هى من فعل الذهن البحت، والتى تصاغ فيها خلجات النفس والوجدان فتخرج خافتة النبرات باهتة الألوان[١]

وكان أبرز هؤلاء الشاعر الكبير خليل مطران الذى عاصر جيل المحافظين، فحلق بشعره فى سماء التقليد، كما حلق به فى سماء التجديد، وبذا يعد مطران من الرواد الذين وضعوا أصول التجديد فى الشعر وقواعده الفنية، وأظهر هذه الأصول وتلك القواعد دعوته إلى وحدة الموضوع فى القصيدة وإلى الوحدة العضوية فيها. تلك الوحدة التى تكفل لها أن تبنى بناء مترابطاً بحيث يؤدى البيت فيها وظيفته بتلاؤمه مع ما جاوره فيكتمل جمالها الفنى باسنجام أبياتها واتساق معانيها وتوافقها. حتى إنه ليذهب بعض الدارسين[٢] إلى

---

(١) أنظر خليل مطران فى شعراء معاصرون ص١٩٧ جـ٢ طبع دار المعارف بمصر ١٩٨٤ تقديم د/أحمد إبراهيم الهوارى

(٢) أنظر تطور الأدب الحديث فى مصر د/أحمد هيكل ص١٥١ طبع دار المعارف بمصر ١٩٨٤م ط٦

أن الشاعر خليل مطران هو الأب الشرعى لهذا الاتجاه لأنه أسبق ممن ارتاد هذا الاتجاه.

وذلك حين كتب عن خطوط هذا الاتجاه الشعرى الجديد سنة ١٩٠٠م فى المجلة المصرية لافتا الأنظار إليه بمثل قوله:"إن اللغة غير التصور والرأى، وإن خطة العرب فى الشعر لا يجب حتماً أن تكون خطتنا، بل لهم عصرهم ولنا عصرنا، ولهم أدبهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم، ولنا آدابنا وأخلاقنا وعلومنا. ولهذا وجب أن يكون شعرنا مماثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم، وإن كان مفرغاً فى قوالبهم، محتذيا مذاهبهم اللفظية"(١)

كما كتب أيضا فى عدد أخر فى المجلة ذاتها من العام نفسه ينقد القصيدة العربية التقليدية من حيث تعدد أغراضها وعدم التحام أجزائها وتمزق معانيها إذ يقول:" نجد فى الشعر العربى ارتباطاً بالمعنى التى يتضمنها القصيد الواحد ولا تلاحم بين أجزائها ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها وتوطد بها أركانها، وربما اجتمع فى القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع فى أحد المتاحف من النفائس ولكن بلا صلة ولا تسلسل، وناهيك عما فى الغزل العربى من الأغراض الاتباعية لا تجتمع إلا لتتنافر وتتناحب فى ذهن القارئ. ولولا اختيار الألفاظ وحسن الأسلوب وبدائع الصور التركيبية. وكذلك لولا مؤالفة أذهان العرب لصيغة القريض وتركيبه

---

(١) المجلة المصرية ١٩٠٠م العدد ٨٥

من هذا القدد المتنافرة لتنافرت وجوه الشعر عند العرب وهم يرون التقطع بين قول كبير شعرائهم المتنبى:

أنا لائمى إن كنت وقت اللـوائم علمت بما بى بين تلك المعـالم

وما يليه من الأبيات ذوات الأغراض الغزلية وبين قولـه مفاجئـة على إثر ذلك:

فما لى وللدنيا طلابى نجومهـا ومسعاى منها فى شدوق الأراقم

من الحلم أن تستعمل الجهل دونـه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظـالم

إلى أخر هذه الأغراض المنتهية عند الحكمة ثم يبين قولـه بعـدها فى الفخر:

إذا صلت لم أترك مصالا لفاتـك وإن قلت لم أترك مجـالاً لعـالم

ويبين قوله فى التخلص إلى الممدوح:

وإلا فخانتنى القوافى وعـاقتنى عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

يقول مطران: " ولا جرم أن هذه القصيدة نظمت لابن عبد الله. فما الذى كان يعنيه من كل الأمور التى تقدمت ذكره فيها، وهل الحـق عليه سلفا من جزاء ما مدح به أن يسمع شكوى غرام الشـاعر و ويرى رسم حبيبته الموصوفة ثم يثب من هنالك إلى النجوم التـي جعلها أبو الطيب المتنبي طلابه من الدنيا ثم يرتفع إلى مهبط وحيه و مستنزل حكمته يسمو إلى قمة فخره بسيفه و قلمه ثم يعود إلـى داره،إلى المجلس الذي هو فيه منها و بين يديه أبو الطيب ينشـد

ويسمع ما أثنى عليه به[١].

ثم أذاع ديوانه سنة ١٩٠٨م مصدرا بمقدمة تمثل الخطوط العريضة للمبادئ الأساسية لهذا الاتجاه و محتويا على كثير من النماذج التي تعد تطبيقا ناجحا له.

و في هذه المقدمة يقول مطران: "هذا شعر ليس ناظمه بعبده و لا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصحيح، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكره جاره، و شاتم أخاه و دابر المقطع، و قاطع المقطع، وخالف الختام. بل ينظر إلى جمال البيت ذاته و في موضوعه، وإلى جملة القصيدة في تركيبها و ترتيبها، و في تناسق معانيها و مواقفها مع ندور التصور وغرابة الموضوع و مطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعر الحر،و تحرير دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر."[٢]

فخليل مطران يرى أن قوالب العرب في نظم الشعر و مذاهبه في صوغ الكلام أساس اتباعي تقوم عليه لغة الضاد، وأن المذهب الجديد ليس عليه أن يخرج إلى هذه الأصول، وأن كانت له كل الحرية من جهة المعاني و توجيه الأغراض إلى السبيل الذي يشاء، غير مقيد بشئ إلا أن تكون هذه المعاني و الأغراض مستنزلة من

---

(١) خليل مطران في المجلة المصرية السنة الأولى جـ٢ ١٩٠٠/٦/١٦م ص ٤٢-٤٤.

(٢) مقدمة ديوان الخليل ص١٠ دار مارون عبود -بيروت ١٩٧٥م.

روح العصر الذي يعيش الناطقون بالعربية فيه اليوم، ذلك ليكون هذا الشعر عصريا من حيث تنعكس من صفحته ظلال روح العصر.

على هذا الأساس يتضح جليا لنا الاتجاه الجديد الذي استحدثه خليل مطران في الشعر العربي، و الذي سار في ركابه من بعد ما تميزت خطوطه الشاعر السوري خليل شيبوب و الشاعر المصري علي محمود طه، و قد كانا أمينين على أغراض المذهب الذي استحدثه خليل مطران من بين كل المجددين.[١] وسوف أتناول في بحثي هذا مظهرا من مظاهر الاتجاه التجديدي في شعر مطران وهو شعر الطبيعة و آثارها في وجدانه و عاطفته نحوها. حيث رأى أن الطبيعة تمثل الوفاء في صدور الناس، و تمثل الحب متى غاض الحب في قلوبهم، كما أنها تمثل الشفاء للروح و الجسد متى تكالبت الأدواء و الأرزاء، و أطبقت الهموم على الكائن البشري، وفي هذه الحال لا ملجأ للإنسان إلا الطبيعة يفزع إليها يلقي نفسه عليها بكل ما فيها من انعكاسات و انفعالات، حتى لتغدو -الطبيعة- مصورة للنفس الإنسانية، فيناجيها و تناجيه، يبثها آلامه، و يشكو إليها همومه و أحزانه فتشاطره الهموم و الأحزان،و تشاركه الأفراح والأتراح، متقلبة معه في انفعالاته الوجدانية،و في حالاته النفسية، فينعكس على مرآتها صورا لما في نفسه من خواطر وما يجيش في

---

(١) أنظر شعراء معاصرون د/إسماعيل أدهم بحث عن خليل مطران ص ١٩٨ طبعة دار المعارف ١٩٨٤م..

صدره من آمال و آلام.

على أنه مما يجب التنبيه إليه سلفا أن الشعر العربي على مدى تاريخه الطويل منذ نشأته حتى اليوم قد تناول الطبيعة بالوصف، إلا أن شعراءه تناولوها وصفا حسيا يغاير وصف الإبداعيين لها من مثل مطران و مدرسته.

و من هنا فإن اتجاه مطران إلى الطبيعة يشخصها و يستنطقها بل ويمتزج بها حتى لتصبح صورة لما في نفسه،ومرآه تنعكس عليها مشاعره ووجدانه النفسية يعد اتجاها جديدا في الشعر العربي أضافه مطران إلى التراث الأدبي الذي يعتز به كل عربي بعد أن بلغ التدهور في الشعر العربي غايته في عصور الظلام أيام حكم الأتراك العثمانيين.

هذا وقد انتظم البحث الموضوعات الآتية:

١-مقدمة.

٢-تمهيد. تحدثت فيه عن أصالة شعر الطبيعة في الشعر العربي حيث إن الطبيعة مصدر من مصادر إلهام الشعراء وقد اقتضى ذلك أن أتتبع- بإيجاز- شعر الطبيعة منذ الجاهلية حتى عصر مطران. انتهيت منه إلى الطبيعة في شعر مطران. فقسمت البحث إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: عن الشاعر وشاعريته، وقد قسمته إلى مبحثين

أ- مطران في موكب الزمن. ب- شاعريته وبواعثها.

الفصل الثاني: تحدثت فيه عن مظاهر الطبيعة في شعره وقد تخيرت من تلك المظاهر أهم ما تناوله شعره منها وهى

١- النباتات ٢-المياه ٣- الكونيات ٥- الطيور

الفصل الثالث: خصصته عن الحديث عن"الخصائص الفنية في شعر الطبيعة عنده "فتحدثت من تلك الخصائص عن :

١- الألفاظ والأساليب ٢-المعاني والأفكار ٣- الخيال والصور

٤-الموسيقى ٥-الموضوعية

أما **الفصل الرابع:** فقد جاء بعنوان "شعر الطبيعة عند مطران بين التأثر والتأثير"فتحدثت عن تأثره بشعر الطبيعة منوها بأهم الشعراء الذين تأثر بهم مطران في هذا المجال.كذلك تحدثت عن أثر شعره في معاصريه وعلى وجه الخصوص جماعة أبولو.

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها كل ما توصلت إليه من نتائج.

والله أسأل التوفيق

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وعليه أنيب)

وعلى الله قصد السبيل إنه نعم المولى ونعم النصير. والحمد لله رب العالمين.

دكتور

محمود جمعة أمين

الطبيعة فى وجدان الشعراء

تمهيد:

-١-

الطبيعة ذلك الكتاب المفتوح الذى ترتسم على صفحاته معالم الكون، وجمال مظاهره. صفحات من عطاء الله، دلت على الخالق، فكانت مظهرا من مظاهر قدرة الله وبديع صنعه.

قال عز وجل " والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون، والأرض فرشناها فنعم الماهدون، ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون"(١)

وقد ارتبط الإنسان بالطبيعة ارتباطا وثيقا، بحيث لا يستغنى الإنسان عن الماء والهواء، وما نتج من الأرض، وما ينزل من السماء.

قال تعالى:" وهوالذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون "(٢) وسخرها له لينتفع بها فى حياته ومعاشه فقال:"وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات،

---

(١) سورة الذاريات الآيات من ٤٧ - ٤٩

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩

إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون، وعلامات وبالنجم هم يهتدون"(١)

وحثه على النظر فيها، والتأمل فى أسرارها، والتدبر فى بدائع صنع الله لها فقال: " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج"(٢)

وقد ألهمت تلك الطبيعة الشعراء، فحرك جمالها مشاعرهم، وأيقظ بهاؤها أحاسيسهم، واستقى كل واحد منها بقدر تأثره بها.

فمنهم من صورها مجردة كما هى فى الواقع لينبه غيره إلى آيات الله فى الكون كما تنبه هو، فيتدبرها ويتأمل فى مخلوقاته فيها، ومنهم من صورها فى إطار من المشاركة والتجاوب بين عاطفته

---

(١) سورة النحل الآيات من ١٠ - ١٦

(٢) سورة ق الآيات من ٦ - ١١

ووجدانه وبين مظاهرها فيتبادلان التعاطف والمشاعر، فيحبها وتحبه ويتألم لها، ويأسى له فى مشاركة وجدانية بينهما ليدفع غيره أن يتبادل هو كذلك فى آيات الكون ومظاهر الطبيعة فيتجاوب معها حبا بحب. (١)

-٢-

ولقد عرف الشعراء العرب الطبيعة منذ القدم فصوروها فى أشعارهم حسب ما تراءت لهم وقد تهيأ لهم من هذا الفن حظ عظيم فقد كان العربى القديم شاعر طبيعة يتأمل فيها ويبثها آلامه، وينسى عندها أحزانه، ويحبها ويفتن بها، ويصورها كما مثلتها نفسه، تثير الأطلال شجونه وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده، وتستهويه الصحراء بحيواناتها ورمالها وآبارها وواحاتها، وصفاء سمائها، ونظام نجومها ولمعان برقها ومطرها.

نرى ذلك واضحا فى أقدم الشعر الذى وصل إلينا منذ الجاهلية من أصحاب المعلقات ومن دونهم.

فقد عنى امرؤ القيس بوصفها وصفا فيه جدة وطرافة، فذكر الأطلال فى معلقته وانفعل بها وأغرق نفسه بما توافر له من صدق الشعور وجودة الأفكار وجمال الصياغة فيمضى فى معلقته ينظر إلى الطبيعة ليتحدث عن الليل ونجومه ويرى أن الليل مصدر

---

(١) الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق جـ٣ ص١٩٧ د/ على على صبح – طبع الجريسى – القاهرة ١٩٩٨..

همومه ووحى أحزانه:

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

ويصف الصحراء وحيوانها، ويصورهما تصويرا انتزعه من بيئته

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل

ويمضى يصور الذئب بصورة من يعقل من الإنس فيقول:

فقلت له لما عوى إن شأننا قليل إن كنت لما تمول

ويصور حالته بحالة الذئب فيقول:

كلانا إذا نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل

وينتقل إلى وصف الطبيعة الحية فيتحدث عن الطيور والخيل:

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

ثم يأخذ فى وصف آخر من مظاهر الطبيعة وهو البرق وميضه فيصوره فى صورة محسة مشاهدة، فيرسم لنا لوحة فنية رائعة عن الطبيعة وجمالها طالبا من صاحبه أن يشاركه متعته بالطبيعة فيقول:

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حبى مكلل

يضىء سناه، أو مصابيح راهب أمال السليط بالزبال المفتل

كذلك وصف طرفة الطبيعة فتحدث عن الأطلال والبحر والسفن

تمخر فيه وهى تشق بصدرها أمواجه فتراه وقد انتصفت مياهه إذ يبدأ معلقته بتلك الظواهر الطبيعية ويقول:

لخولــة أطــلال ببرقــة ثهمــد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

ويمضى يصف السفينة والبحر فيقول:

كأن حــدوج المالكيــة غــدوة خلايا سفين بالنواصف مــن دد

عدولية أو من سفين ابن يا من يجور بها الملاح طورا ويهتدى

يشق عباب الماء حيزومها بهــا كما قسم الترب المفايل باليــد(١)

وغير طرفه وامرئ القيس من شعراء المعلقات وسواهم من شعراء الصعاليك وأمثالهم تناولوا وصف مظاهر الطبيعة فكانــت واســطة العقد فى أشعارهم.

ومن هذا يتبين أن شعر الطبيعة من أقدم فنــون الشــعر العربــى، والعربى الذى اندمج مع الطبيعة بحكم معايشته فيها حيــث ســكن الفيافى والقفار وعاش على نبات الأرض وماء السماء كان لابد أن يلتفت إلى الطبيعة لأنها مصدر حياته ونبــع معاشــه يــردد فيهــا الأصوات فيجد فى ترديدها متعته ولذته وعونا له على تحمل أعباء الحياة، فصدر فى شعره نحو الطبيعة بمال يتلاءم وفطرتــه إليهــا وفق ثقافته فانطلق يعبر عن إحساسه نحوها بشعر ينبض بوصف

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى: تحقيق محمد محى الدين عبــد الحميــد – مكتبة صبيح بالأزهر – مطبعة السعادة – بدون تاريخ.

الطبيعة من جميع جوانبها فلم يدع الشعر الجاهلى مظهرا من مظاهر الطبيعة إلا وقع عليه ووصفه وصفا حسيا مستعينا على ذلك بتشبيهات من البيئة آنذاك.

-٣-

ويمضى العصر الجاهلى، وتتوالى العصور الأدبية فلم يخل عصر منها من شعر الطبيعة، مع الأخذ فى الاعتبار أن كل عصر اتخذ له اتجاها فى هذا الفن وفق التطور فيه، والتعمق فى مظاهره، فنجد - مثلا- أن العصر الإسلامى كان امتداداً لعصر الجاهلين، وذلك وقف شعراء الإسلام فيه عند الحد الذى انتهى إليه أسلافهم، فوجدنا "حسان بن ثابت" يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة فيقف -كما وقف أسلافه- عند شعر الطبيعة على الأطلال يصفها بعد أن عصفت بها الرياح ومحتها الأمطار فيقول:

عفت ذات الاصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء
ديار من بنى الحسحاس قفر تعفتها الروامس والسماء

وينتقل بعدها إلى الطبيعة الناطقة ماثلة فى الخيل واصفا قوتها وأصالتها فهى تثير الغبار بقوتها وقدرتها على تحقيق النصر.

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
يبارين الأعنة مصعدات على أكتافها الأسل الظماء[1]

---

(١) ديوان حسان ص٧١طبع دار المعارف ١٩٧٤تحقيق د/ سيد حنفى حسنين

وعلى الدرب نفسه، وبنفس الاتجاه إلى الطبيعة ذهب "كعب بن زهير" ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته "بانت سعاد" وفيها يرسم من مظاهر الطبيعة صورة فنية رائعة بدا فيها أسد فاتك يقيم بأرض شجراء، تتكاثر فيها الأحراش الملتفة، وهو يطعم شبلين من لحم إنسانى ممزق معفور بالتراب، وإذا أسد أقوى منه ينازله فيقضى عليه فأصبح تخشاه سباع الجو، ولا يمشى بواديه أحد إذ لا يمر به شجاع إلا افترسه. نافذا من ذلك إلى مدح النبى صلى الله عليه وسلم إذ يقول فى طريقه للرسول معتذرا:

ما زلت أقتطع البيداء مدرعا جنح الظلام وثوب الليل مسدول
فلهو أخوف عندى إذ أكلمه وقيل: إنك منسوب ومسئول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره فى بطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما لحم من الناس معفور خراديل
إذا يساور قرنا لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مغلول
منه تظل سباع الجو نافرة ولا تمشى بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة مضرج البز والدرسان مأكول(١)

-٤-

وتتطور الحياة ويتطور معها شعر الطبيعة، ويطالعنا فى العصر الأموى "مجنون ليلى" ذلك الشاعر الرقيق الذى تميز بحسن السبك

---

(١) الإسعاد شرح بانت سعاد ص٩٩ د/مصطفى محمد عمارة طبع عيسى البابى الحلبى بدون تاريخ.

ورقة الألفاظ، وعذوبة الأسلوب، وروعة التصوير فجاء شعره خاليا من الإسفاف.

عاش تجربة وجدانية غاص فيها حتى مات بسببها، لجأ إلى الطبيعة يستنطقها ويصورها تصويرا حيا يوحى بمعاناته وآلامه، حين جعل الطبيعة وثيقة الصلة بحبه إذ ربط بها نفسه من أجل أن تشاركه مظاهرها فى التعبير عما يختلج فى نفسه، وحتى يشاركه حبه فى الفتنة بمظاهر الطبيعة.

فطلوع الشمس وغروبها يصلان بينه وبين "ليلى" حتى يسائل النفس: هل هما يهديان التحية إلى آلها؟

ألا هل طلوع الشمس يهدى تحية إلى آل ليلى أو دنو غروبها[١]

ويثير طلوع النجم والصبح شجونه:

فما طلع النجم الذى يهتدى به ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا[٢]

وإذا نظر إلى السماء، فرأى طيراً يحلق فى جوها، حملة السلام إلى الحبيبة

ألا أيها الطير المحلق غاديا تحمل سلامى لا تزرنى منديا[٣]

ومن أجل الحب اتصلت نفسه بنجد وترابها الطيب، وأقحوان الرمل،

---

(١) ديوان مجنون ليلى ص٣٧ جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج مكتبة مصر للطباعة.

(٢) ديوان مجنون ليلى ص٨٨

(٣) ديوان مجنون ليلى ص٣٣

وعلويات الرياح تجرى بروح الخزامى والإبل تنتقل بين مواطن الحبيب[١]

ومن أجل الحب هام برائحة الخزامى وأخذ ينادى شجرات الأثل، يطلب الطمأنينة لفؤاده فى ظلها:

ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة إلى قرقرى قبل الممات سبيل
فيا أثلات القاع قد مل صحبتى مسيرى فهل فى ظلكن مقيل[٢]

ويستنطق الجبل حتى يشاركه همومه وآلامه ليأسى له فنجد مشاركة وجدانية بين الطبيعة وبين الشعر كالتى نعلمها عند مطران وغيره من شعراء الطبيعة فى عصرنا الحديث يقول المجنون:

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآنى
وأذريت دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعانى
فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك من خصب وطيب زمانى
فقال مضوا واستودعونى بلادهم ومن ذا الذى يبقى على الحدثان
وإنى لأبكى اليوم من خدرى غدا فراقك والحيان مجتمعان[٣]

-٥-

وتزدهر الحضارة العربية فى ظل العباسيين فتزدهر بأزدهارها الحياة الأدبية ويكون للفكر الحضارى أثره العظيم فى نشاط الشعر

---

(١) ديوان مجنون ليلى ص١٠
(٢) ديوان مجنون ليلى ص٣٩ - ٤٠
(٣) المصدر نفسه ص٩٨

وازدهاره فتقوم نهضة شعرية قلما يجود الزمان بمثلها، ويكثر شعر الوصف فى المشرق وفى الأندلس ومما لا مراء فيه أن الشعر الوصفى أبرز ما فيه وصف الطبيعة بمظاهرها المتعددة لذا فقد ظفرنا بطائفة كثيرة من الشعراء تناولوا وصف مظاهر الطبيعة وصفا حضاريا لا وصفا تقليديا كما كان شعر الطبيعة من قبل، فوجدنا الشعراء يتناولون الطبيعة، كل على قدر ثقافته بل وبيئته، فاتجاه ابن المعتز مثلا للطبيعة ومظاهرها يختلف عن اتجاه ابن الرومى لها، واتجاه أبى تمام يخالف اتجاه البحترى وهكذا.

وعلى كل حال ومهما اختلفت الاتجاهات فقد طالعنا هذا العصر بطائفة كثيرة من الشعراء تناولوا وصف مظاهر الطبيعة فى شعر ينم عن ذوق حضارى، تشيع فيه روح الثقافات الأجنبية التى امتزجت بالثقافة العربية آنئذ، ولعل أبا تمام يمثل شعر الطبيعة لهذا العصر أتم تمثيل، فقد استهوته الطبيعة استهواء عظيما، فاستولت على فؤاده فراح يتغنى بأزهارها، ورياضها وغيثها، وإذا كان الربيع بهجة العام ومهرجان الطبيعة فقد فتن أبو تمام به فتنة عظيمة ومما يمثل هذه الفتنة قصيدته فى الربيع. أجتزئ منها الأبيات التالية:

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر وغدا الثرى فى حليه يتكسر
بذلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تكفر
لولا الذى غرس الشتاء بكفه قاسى المصيف هشائما لا تثمر
مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يقطر

يا صاحبى تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر

دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فإنما هى منظر

من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنما عين إليك تحدر

مصفرة محمرة فكأنها عصب تيمن فى الورى وتمضر

من فاقع غصن النبات كأنه در تشقق قبل ثم تزعفر[1]

وكما استهوت الطبيعة أبا تمام فألبسها من أروع صوره الشعرية، استهوت الطبيعة غيره من شعراء عصره - وإن لم يكونوا على درجته فى هذا الفن- من أمثال ابن الرومى والبحترى وابن المعتز وكشاجم والصنوبرى، وغيرهم من شعراء المشرق.

-٦-

أما في الأندلس فقد فتن الشعراء قاطبة بجمال الطبيعة وسحرها الأخاذ في هذه البلاد حتى أن ابن خفاجة الأندلسي جعلها جنة الخلد، ولو أنه خير أي قطر يقيم لاختار الأندلس، لجمال طبيعتها، وحسن هوائها،وطيب مائها، وأريج أزهارها، فيقول:

يا أهل أندلس الله دركم ماء وظل وأشجار وأنهار

ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار

---

(١) ديوان أبى تمام شرح التبريزى جـ٢ ص١٩٢ طبع دار المعارف ١٩٨٢ تحقيق محمد عبده عزام

لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا فليس تدخل بعد الجنة النار[١]

ومن يرجع إلى ديوانه يجد مظاهر الطبيعة أبرز المعالم في شعره فإذا مدح أو رثى أو تغزل أو وصف، فإنما يستمد صوره الفنية من الطبيعة كما في قصيدة له يصف نهرا:

لله نهر سال في بطحاء أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتنفه مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا من فضة في بردة خضراء
وعدت تحف به الغصون كأنها هدب تحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء[٢]

فقد خلع على النهر صورا من جمال الطبيعة: فالنهر يجري من منعطفاته مستديرا كما يتعطف السوار حول المعصم، ويكتنفه زهر فيتجلى كأنه المجرة تحف بها النجوم،ثم يتعمق في التصوير فيتخيل رقته وصفاءه بين الرياض قرصا مفرغا من فضة في بردة خضراء، والغصون تحف به كأنها هدب حول عين زرقاء، والريح تحرك الغصون وقت الأصيل وقد بدت أشعة الشمس الضاربة في الماء كأنها ذهب فوق فضة مذابة.

---

(١) ديوان بن خفاجة ص١١٧ طبع دار صابر بيروت بدون تاريخ

(٢) ديوان أبى تمام شرح التبريزى جـ٢ ص١٩٢ طبع دار المعارف ١٩٨٢ تحقيق محمد عبده عزام

وما قصيدته في الجبل وقد خلع عليه صفات الإنسان بغريبة عن الأذهان. (١)

ومثل ابن خفاجة مع الطبيعة،ابن هاني، وابن زيدون، وابن شهيد، والقسطلاني وغيرهم، جميعهم هاموا في الطبيعة وأحسوها فعبروا عما في نفوسهم نحوها.

وكيف لا يهيمون ولا يحسون في بيئتهم؟! فمساكنهم قصور تزينها الحدائق والبساتين، وينضرها شجر الزهر والرياحين، وتنساب فيها جداول المياه"

وهم يطالعون الطبيعة- كما أبدعها الله- في الحقول وفي الرياض ويطالعونها كما صورها الفن مجلوة في المساجد وفي القصور، والبرك، والأحواض، فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة،وتتضح ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حبا وبها تعلقا.... وكثيرا ما خرج الشعراء جماعات وأفرادا يمتعون النفس بجمال الطبيعة. فكانوا يقبلون على المتنزهات فتنطلق ألسنتهم معبرة عما يختلع في نفوسهم. كالذي حدث من الوزيرأبي القاسم بن الصفاط وقد استهوته الطبيعة في يوم منتزهه فقال:

ويوم لنا بالخيف راق أصيله كما راق تبر للعيان مذاب
وللموج تحت الريح منه تكسر تولد فوق المتن منه حباب

---

(١)المصدر نفسه ص٤٣-٤٤

وقد نجمت قضب لـدان بشـطه حكتهـا قـدد للحسـان رطـاب
وأينع مخضرات النبات خلالهـا كما أقبلت نعمى وراق شباب(١)

وهكذا لم تلبث الأندلس أن صارت منبعا من أهم المنـابع العربيـة لشعر الطبيعة،ولم تلبث أن خرجت شعراء يمثلـون بيئتهـا. ودوام الحال من المحال فقد دالت الدولة العربية في الأندلس ودال معهـا أدبها، وليس على الله بمستنكر أن يعيدها عربية كما كانت.

-٧-

أما مصر في هذه الآونة، فقد رأينا الشعراء في العصر الفاطمي يتجهون إلى تصوير جمال الطبيعة فيها:إلى نيلها وبهائه وسفنه وأمواجه وتبهجهم روعة الزهور والزروع على ضفاف النيل العظيم، ويصوغونها شعرا،كما لم يفتهم المنظر الرائع ساعة الغروب في ماء النيل.

فهذا ابن الساعاتي وصاف ماهر وصف الرياض وما فيها من مياه وأشجار وزهور وظلال، ونسيم، كما وصف الظواهر الجويـة مـن غيث وسحاب،وبرق وثلج، وشمس وقمر ونجوم وظلال،وفي ديوانه أوصاف لطيفة في مصر ونيلها وبعض متنزهاتها.

من ذلك قوله يصف حال النيل من زيادة ونقصان:

متنقـل مثـل الهـلال فـدهره أبدا يزيد كمـا يزيـد ويرجـع

---

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي د/ سيد نوفل ص ٢٦١ طبع دار المعـارف سنة ١٩٧٨

يلقي الثرى في العام وهو مسلم حتى إذا ما مل عاد يودع

وكأنما هو والنجوم مواثل فيه، ونور البدر إذيتشعشع

بيض تسل على متون سوابغ خضر، بأمثال العقود ترصع[١]

وشهد مع جماعة البرزخ عند زيادة النيل، وقد هاج البحر المالح،والماء العذب كالطراز الأحمر في خضرته مع أحدهما بالآخر،على عظم موجهما وشدة الريح.

وفي ذلك يقول:

ولم أر يوما كان أبهج منظرا من البرزخ المشهود لو كنت تعلم

غدا حاجزا ما بين ضدين لم تزل جوامع فكري فيهما تتقسم

وكان رداء الملح أزرق مصمتا وها ردنه بالعذب أزرق معلم

ظللنا نفض الهم في جنباته ونجمع أشتات السرور وننظم

يعرض موج البحر لا عن مودة خدودا إلينا بالمجاذيف تلطم[٢]

وإن كان قد أساء في قوله "تلطم" في مثل هذا المقام. فهي غير لائقة هذا.وقد حظى النيل بالنصيب الأوفر في الشعر المملوكي لأنه شريان الحياة ومورد للرزق وساحة للعطاء. لذا كان النيل مصدر وحي وإلهام للشعراء،يعبرون عن مكنون حبهم وتقديسهم له،

---

(١)ديوان ابن الساعاتي ص ٣٨ طبع الجامعة الأمريكية بيروت ديسمبر ١٩٣٨ تحقيق د/ أنيس المقدسي

(٢) المصدر نفسه ص٣٩

ويستطردون ما يقع في خيالهم من بديع الصور ويدللون على إقناع نفوسهم به.

ومن ذلك ما يقوله إدمر التركي:

أنظر إلى النيل السعيد المقبل والماء في أنهاره كالسلسل
أضحى بربك الحسن بين مورد من لونه حينا وبين مصندل
ويمر في قيد الرياح مسلسلا يا حسنه من مطلق ومسلسل
وترى زوارقه على أمواجه منسوبة للناظر المتأمل
وكأن أسماكه من فضة من جمان ذائب من أول[1]

-٨-

ولا يكاد يطالعنا العصر الأيوبي حتى تظهر الصنعة في الشعر ويولع الشعراء بالبديع حتى أصبحت الألوان البديعية من أهم دعائم أساليب الشعر،فصار هم كثير من الشعراء إظهار تورية،أو طباق أو مقابلة،أو جناس، أو استخدام، ونحو ذلك من ألوان البديع،في معان ضحلة، وأغراض تافهة. ومع ذلك لم يخل شعرهم من شعر الطبيعة، لكنه لم يقصد لذاته، وإنما جاء في سياق الشكوى أو الحنين إلى الأوطان من مثل ما أثر عن تقي الدين ابن حجة الحموي يتشوق وهو في مصر إلى بلده "حماه"، مخاطبا النسيم:

---

(١)عصر سلاطين المماليك و نتاجه العلمى و الأدبي د/ محمود رزق سليم جـ٧ ص ٣٦٨ مكتبة الآداب، الطبعة الأولى.

عرج على وادي حماة بسحره متيمما منه صعيدا طيبا
واحمل لنا في طي بردك نشره فبغير ذاك الطيب لن أتطيبا
وأسرع إلى وداو في مصر به قلبا على نار البعاد مقلبا
لله ذاك السفح والوادي الذي ما زال روض الأنس فيه مخضبا[١]

-٩-

فإذا ما أطل العصر العثمانى حتى أصيب الشعر بالتخلف والجمود وجفت ينابيعه وغاض ماؤه يقول أحد مؤرخى الأدب لهذا العصر: " وفى العصر العثمانى يمكن القول: إن دولة الشعر قد زالت، ولم يبق منها إلا ما يبقى من الدار بعد الطموس.

إذ تقاصرت همم الشعراء عن الأغراض الحيوية الهامة، وعجزوا عن تكرار المعانى المسبوقة، وضاق ذرعهم حتى اصطناع البديع"[٢]

وظل حال الشعر عموما على هذا الوضع فلم نعثر فيه إلا على معنى تافه وأسلوب مهلهل ركيك حتى أشرق العصر الحديث بجهود محمود سامى البارودى رائد مدرسة البعث والإحياء فعاد الشعر إلى رونقه محتذيا ومقلدا النمط العربى فى أزهى عصوره الأدبية.

---

(١)الأدب العربي و تاريخه في عصر المماليك و العثمانيين و العصر الحديث ص ٧٧ د/محمود رزق سليم مطابع دار الكتاب العربى ١٩٥٧م
(٢)المصدر نفسه ص٣٩

وما دام الشعراء يسيرون على ضوء منهج التقليد والاحتذاء، فمن الضرورى أن يرتادوا الطبيعة كما ارتادها أسلافهم: يتأملونها ويصفون مظاهرها، غير أن أشعارهم عن الطبيعة جاءت فى إطار التعلق المادى لوصف مناظرها لا يتعداه إلى إلهام أو اندماج أو كشف عن نوازع الوجدان. اللهم إلا القليل الذى يخرج عن تلك القاعدة الحسية إلى أشارات وجدانية أو البحث فيما وراء الطبيعة.

وربما استوقفتنا فى شعر البارودى إشارات وجدانية ونظرات إلى ما وراء الطبيعة بين عظمة الخالق وجمال المخلوق.

وكما فى قصيدة شوقى وهو يتحدث عن آثار مصر ماثلة فى قصيدته الرائعة أبى الهول فيشخصه، ويجعل منه إنسانا فيناديه كما ينادى الأحياء من الناس:

أبا الهول طال عليك العصر وبلغت فى الدهر أقصى العمر
فيا لدة الدهر لا الدهر شب ولا أنت جاوزت حد الصغر
إلام ركوبك متن الرمال لطى الأصيل وجوب السحر
إلى أخر القصيدة.

بل لقد رأينا لشوقى شعوراً فى الطبيعة ينم عن عمق فى الفكرة وحنين جارف إلى طبيعة مصر فيرسل من منفاه قصيدته النونية المشهورة " يا نائح الطلح "

يبيد أن السمة الغالبة لشعر الطبيعة فى هذه الأونة كان تقليدا أو

معارضة لما كان عليه الشعر في العصور السابقة وظل التصوير الحسي هو الأعم الأغلب حتى اقتحم " مطران " ساحة الشعر فخلع على الطبيعة حللا قشيبة مضفيا على معانيها نظراً تأمليا وفكرا فلسفيا عميقا فجعل لها روحا وعقلاً مازجاً روحها به يناجيها وتناجيه في رومانسية جديدة. مما جعل منه رائدا بل أبا شرعيا للرومانسية الحديثة في مصر على نحو ما سيتضح من خلال هذا البحث إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول

مطران: حياته وشعره

١-مطران فى موكب الزمن

مولده وتدرجه: فى بعلبك ولد خليل عبده مطران فى أول يوليو سنة١٨٧٢م ميلاديا وتوفى بالقاهرة فى الثلاثين من يوليو عام ١٩٤٩م ودفن يوم الجمعة فى أول يوليو من العام نفسه. (١)

ينتمى خليل مطران إلى عائلة " نسيم " وهى فخذ من " الأزد" الذين كانوا يسكنون فى الأزمنة البعيدة أرض اليمن ثم نزحوا إلى أرض الحجاز وهبطوا عند غسان فسموا بالغساسنة ثم رحلوا إلى بلاد الشام(٢). وملكوها إلى أن زال ملكهم مع الفتح الإسلامى حين أسلم أخر ملوكهم " جبلة ابن الأيهم " وأسلمت معه معظم بطون غسان إلا أن فئات قليلة منهم ظلت على الدين المسيحى ومنهم عائلة الشاعر(٣).

وعلى هذا فمطران يمنى حجازى شامى. ثم هو بعد ذلك مصرى قضى جل حياته فى مصر يشارك فى أحداثها ويتغنى بطبيعتها حين

---

(١)خليل مطران شاعر القطرين – إيليا الحاوى ص٥ طبع دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٨م

(٢)مقدمة كتاب خليل مطران شاعر الاقطار العربية. ص٧ د/فوزى عطوى دار الفكر العربى ١٩٨٩م

(٣)خليل مطران شاعر القطرين ص٥

يشيد بنيلها وأهراماتها وأمجادها.

أما أبوه فكان وجيها من وجهاء بعلبك ثرياً محتفظا بالتقاليد العربية الموروثة، وكانت له ضياع يملكها فى واد البقاع، عمل بالتجارة ونال رغدا من العيش فنشأ " خليل " فى بيت عز ويسر.

وأما أمه فاسمها " ملكة الصباغ " كانت مثقفة تقرض الشعر، ورثته عن أمها. أهلها من مدينة " حيفا " وكان أحد أجدادها من أنصار أحمد باشا الجزار والى عكا. ثم تفاقم الأمر بينهما فهاجر الجد بأسرته إلى لبنان.

تلقى خليل مبادئ القراءة والكتابة فى بعلبك على والده وكان والده يحفظ أشعار الجاهلية ولما تعلم مبادئ القراءة والكتابة فى بعلبك أرسله أبوه إلى زحله ليتعلم بها وأنه ليذكر أيامه فيها بقوله:

فى "زحلة" مولدى بالروح لا البدن و"زحلة" برضى من أهلها وطنى
إن يفتنن بهواها من يلم بها فإننى بهواها أى مفتنن
فى "زحلة" لى عهد من صبى وهوى فى "زحلة" اسرتى فى "زحلة" سكنى
تمل روعة واديها البديع وما هناك من متع للعين والأذن
ترو من مائها الجارى وأصغ إلى حديثه بأفانين من اللسن
يجلو ويملأ صدر الحى عافية وليس بالرمق الجافى ولا الأسن
أبناء "زحلة" آساد غطارفة فيها وفى كل ما حلوا من المدن[1]

---

(١)ديوان الخليل جـ٣ ص٢٧٤ - ٢٧٥

وفى ربوع " زحلة " شب حبه البرئ الأول لقريبه له تدعى " نجلاء الصباغ". وحين زارت مصر أقيمت لها حفلة تكريمية وكان الخليل من الشعراء الذين احتفلوا بتلك المناسبة ونظم قصيدة " هل تذكرين " يرجع فيها ما كان بينهما فى " زحلة " من ذكريات:

هل تذكر يـن ونحـن طفـلان عهـداً " بزحلـة" ذكـره غـنم
إذ يلتقـى فـى الكـرم طفـلان يتضـاحكان ويـأنس الكـرم[1]

ثم انتقل إلى بيروت ودخل المدرسة البطريركية، وانتهى من دراسته الثانوية وهو فى السابعة عشر من عمره، وفيها تعلم العربية على الشيخ " إبراهيم اليازجى " شيخ العلماء والأدباء فى زمنه، كما تعلم الفرنسية والتركية، وأخذ يقول الشعر ويعرضه على أستاذه " اليازجى". وقد أفاد منه طريقته فى التدقيق اللغوى، والمحافظة على سلامة الصياغة، وكان طموحاً محباً للحرية، مغرماً بالأدب الأجنبى.

فقد نظم فى تلك الفترة بعض الشعر الثورى ضد السلطان " عبد الحميد " وأستبداده فضيق عليه الأتراك الخناق فاضطر إلى أن يهجر بيروت ويهاجر إلى باريس سنة ١٨٩٠م وقام بها زمنا، اتصل فيه برجال الحركة التركية المجددة من حزب " تركيا الفتاة " فلفت إليه أنظار السفارة التركية، فاشتدت فى مراقبته، فعزم على الهجرة مرة أخرى إلى " شيلى " وأخذ يعد العدة لهذه الهجرة، فعكف على دراسة اللغة الأسبانية ولكنه تردد طويلا فى تنفيذ عزمه

---

(١) خليل مطران شاعر القطرين – طليعة الشعراء المحدثين إيليا أبو ماضى دار الكتاب اللبنانى ص٦

بالهجرة إلى " أمريكا " وأخيرا أتى " مصر " سنة ١٨٩٢م واشتغل بتحرير الأهرام وهو بالاسكندرية وصاحب الخديوى عباس إلى تركيا فى تلك السنة. ثم استقر بالقاهرة بعد عام وظل يعمل فى الأهرام حتى سنة ١٨٩٩م، وكان يكتب كل أسبوع مقالة فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الأدب. وسافر إلى الشام فى تلك السنة، وفى سنة ١٩٠٠م أصدر المجلة مدة عامين، عنى فيها بالشعر والنقد الأدبى وفنون الزراعة ونشر فيها فصولا فى تلك التاريخ سماها فيما بعد حين جمعها " مرآة الأيام " وكان لا ينفك فى تلك الحقبة ينشر شعره فى مختلف المجلات، ونشر فيها كذلك أبحاثاً عن فيكتور هوجو، والأدب الصينى، والشعر العربى متأثراً بقراءاته فى الآداب الأجنبية، ثم اشتغل بالمال والاقتصاد والمضاربات، وأصيب بخسارة أتت على كل مدخره سنة ١٩١٢م

لكن ذلك لم يثنه عن الاهتمام بشئون المال، واتصل "بجورج أبيض الممثل "إثر عودته من باريس، وترجم له بعض مسرحيات" شكسبير":(عطيل،تاجر البندقية،هاملت،ماكبث) وترجم مع"حافظ إبراهيم " الموجز فى الاقتصاد، وهو سفر كبير ثم عين أمينا مساعدا للجمعية الزراعية، واشتد اهتمامه بالتمثيل فأسهم فى تأسيس شركة التمثيل العربى ثم عين رئيسا للفرقة القومية وظل بها إلى أن وافته المنية فى سنة ١٩٤٩م عن عمر بلغ سبعاً وسبعين سنة[١]

---

(١)أنظر خليل مطران شاعر القطرين لإيليا الحاوى،مطران شاعر الاقطار العربية-صالح جودت فى مقدمة مطران شاعر الاقطار العربية،شوقى ضيف فى الأدب الحديث فى مصر،محمد مندور فى خليل مطران دار نهضة مصر

٢-شاعريته وبواعثها:

نظم مطران الشعر مبكراً حين بلغ السابعة من عمره، وكان يدربه على قرض الشعر " حسيب غبريل" الذى صاحبه فى المدرسة البطريركية.

وأولى قصيدة نظمها كانت بعنوان " الحرب بين الألمان والفرنسيين " ومطلعها:

مشت الجبال بهم وسال الوادى ومضوا مهاداً سرن فوق مهاد

ونظم قصائد أخرى ثورية وزعت فى بيروت وهى غفل من التوقيع(١)

وقد بدأ شعره مقلداً من سبقه شكلا وموضوعاً حاكى فيه شعراء زمانه فى أغراض الشعر الشائعة فى ذلك العصر من مديح ورثاء وإخوانيات على حد قوله:

" استخدمت الروية ولم أشب عن طفولة الروية. فرأيت فى الشعر المألوف جموداً وبدا لى تطريز الأقلام على الصحف البيضاء، كتطريس الأقدام فى تيه البيداء. فأنكرت طريقته لجهل حقيقته وقضيت سائر أيام الصبا وأوائل أيام الشباب، وأنا لا ألوى عليه حتى دعت بعض مداعى الحياة فعدت إليه.

عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن

---

(١)خليل مطران شاعر القطرين أيليا الحاوى ص٧

يكون الشعر. فشرعت أنظم لترضية نفسى حيث أتخلى، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى متابعا عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه. ومراعاة الوجدان على مشتهاه موافقا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب لا أخشى استخدامها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب. ذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شئ منها إلا ما فاتنى علمه. ولم أكن مبتكراً فيما صنعت. فقط فعل فصحاء العرب قبلى، ما لا يقاس إليه فعلى. فإنهم توسعوا فى مذاهب البيان توسع الرشد والحزم. وجاريتهم فى تصنيف الكلام على ما اقتضاه هذا العهد من أساليب النظم"[١]

ولكنه حين نضجت شاعريته استقر على مدرسة يومئذ فى الأدب العربى هى المدرسة الرومانسية[٢] التى ألقت بها ثقافته الفرنسية على أنه كان فى وسعه أن يبدأ مجدداً إبداعياً لكنه راعى الظروف والأحوال التى حفت بها نشأته فى لبنان، فرأى أن لا يفاجئ الناس بكل ما يجيش بخاطره من صور زاهية للتجديد الشعرى حيث كان على وعى جيد أن التجديد لا يحدث طفرة لأن الطفرة لا يكتب لها النجاح، وإذا كتب لها النجاح، فلا يكتب لها الاستقرار والبقاء.

فهو يريد هدم ما لم يعد سائغاً من الأساليب القديمة، ولكنه مع ذلك،

---

(١)ديوان الخليل ص٩ دار مارون عبود بيروت ١٩٧٥م

(٢)سبق أن أشرت إلى خصائصها فى المقدمة

لم يكن ليرضى بالتفريط فى شئ من أصول اللغة، بمعنى أنه عمد إلى التجديد فى المعانى والأخيلة والصور الشعرية، وحرص على أن تكون المبانى الكلاسيكية، والأوزان الخليلية مصونة إلى أقصى الحدود، وإن كان تصرف ونوع فى الأوزان والقوافى خلال القصيدة الواحدة وهى التجربة التى عرفها قبله الشعر العربى فى الأندلس، عبر فن التوشيح. وهكذا نراه يقول فى إحدى مقالاته:

" أردت التجديد فى الشعر منذ نعومة أظافرى ولقيت دونه ما لقيته من عنت ومناواة ، وليس هنا محل وصف للألام التى عانيتها، ولا للبواعث التى انبثقت منها نوازع الذين حاولوا قطع السبيل على بضع سنين. أردت التجديد فى الشعر وبذلك فيه ما بذلت من جهد عن عقيدة راسخة فى نفسى وهى أنه – أى التجديد- فى الشعر كما فى النثر، شرط لبقاء اللغة حية نامية.

على أننى اضطررت، مراعاة للأحوال التى حفت بها نشأتى ألا أفاجئ الناس بكل ما كان يجيش بخاطرى، وخصوصا ألا أفاجئهم بالصورة التى كنت أوثرها للتعبير لو كنت طليقا، فجاريت العتيق فى الصورة بقدر ما وسعه جهدى وتضلعى فى الأصول وإطلاعى على مخلفات الفصحاء[١]

" ولم يكن خليل مطران ليقصر تجديده على موضوعات الشعر وحدها بل تعداها إلى الأسلوب، فكتب ما يسمونه اليوم (شعرا

---

(١)انظر خليل مطران شاعر الاقطار د/ فوزى عطوى ص٢٢ - ٢٣

منثورا) وإن كنا نحن نؤثر تسميته (نثرا شعريا) فكان فى طليعة كتاب هذا اللون الأدبى، بالإضافة إلى بعض كتابات جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، وأمين الريحانى، سواهم.

كما أن عدم تمسكه بالوزن الواحد والقافية الواحدة لم يعد أمراً خفيا على الرغم من أنه نظم القصائد الكلاسيكية الطوال. فهو قد نوع الأوزان، وعدد القوافى، وحرر الشعر من جفافه السابق، حتى ليقول الدكتور زكى المحاسنى فى ذلك:" إنى أعده فى هذا العصر من أوائل من حاولوا كسر القوافى وابتعدوا عن البيان القاسى وغريب اللفظ والحشو فى التعبير فصنع شعراً فى قصائد موحدة الموضوع مختلفة الروى والقوافى، وقصائد من الشعر المرسل مؤلفة من أشطار واحدة تليها كلمات مقفاه متوالية، وكتب نماذج من الشعر المنثور ظهرت فى ديوانه الأول".

وعن مدى تأثير الآداب الأجنبية، ولا سيما الأدب الفرنسى فى شعر خليل مطران يقول:" وبدت هذه الظاهرة فيه، فراح يقول الشعر فيما خلق من أجله الشعر فى الجمال والفن والبدائع، وفى المرأة والطبيعة والحياة، وسيطر على شعره فى الغزل روح من " الفريد دو موسيه " وكان يألف هذا الشاعر ويحبه، وقد أهوى مرة إلى فتاة أعجب بأدبها نسخة من هذا الديوان كتب لها تلقاء الصفحة الأولى منه أبيات يقول فى أولها فى وصف "موسيه":

شاعر كان عمره بيت تشبيب وكان الأنين منه رويا

ولم يدر مطران أنه كان يخط، إذ ذاك، الطابع الأبدى على شعر شبابه هو بمثل هذا الوصف الصحيح".

ويردف المحاسنى، فى الحديث عن تجديد مطران:" ثم أخذ تجديد مطران يتجلى، فتنحسر عنه الأنوار القاتمة القديمة ويبدو ذلك فى محاولة راح يحاولها فى صنع ملحمة أعلن صنعها على غرار الملاحم الحربية التى كانت لهوميروس وغيره من شعراء الملاحم، هى القصيدة الكبرى التى صور فيها طاغية الرومان " نيرون " فى بطشه وجنون عظمته.

إن لمطران قصائد كثيرة قالها لوجه الشعر وحده ولتمجيد الشعر فى هيكله القدسى.

وقد أمكن شعره من معان جديدة لم يجر الكثير من تشابيهها وفنونها التصويرية على غرار الأوائل. لقد ترك صورا غابرة غائرة وأخذ صورة من الحياة والفن والبدائع فغلبت عليه روح التجديد.

فأنت إذ تقرأ شعره، تحس أن هذا الشعر، وإن يك عربيا أصيل النظم، مسرداً على الوزن، منسوجاً بالقافية ومحبوكاً بالروى، حلكه صناع عتيق لكن فيه روح تموج فيعها نسمات الجدة ومحاسن الحدوث.

بل إنه شعر كحسناء سابية أطل وجهها بالسحر، ونفح شعرها بالعطر، وتنقلت قدماها الخفيفتان فى رقصة مفتان، لكنها لفت على جسدها البض اللامع الصقيل ثيابا من نسيج عتيق، وطراز قديم،

وتدعوك روح العصر لو ترى الحسان بثياب معاصرة.

وقد عرض مطران في شعره ألواناً متمادية لجمال الآفاق، وقصصا تتلى بألسنة روايات من بنات الشعر، سكبت فى أفواههن البيان آلهة الأساطير. (١)

وبذا أصبح مطران مجددا فى الأدب العربى الحديث

وقد أماط مطران اللثام عن هذا التجديد حين ذكر فى المجلة المصرية عام ١٩٠٠م وقال:

" اللغة غير التصور والرأى. وأن خطة العرب فى الشعر لا يجب حتما أن تكون خطتنا بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم، ولنا آدابنا وأخلاقنا وعلومنا، لهذا يجب أن يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم، وإن كان مفرغاً فى قوالبهم، محتذيا مذاهبهم اللفظية(٢)

كما ذكر مثل هذا الرأى مثل هذا الرأى فى مقدمة ديوانه(٣) مما يدل على أسبقيته فى قيادة حركة التجديد كذلك كان من أهم ما اتجه إليه فى تجديده أن عبر تعبيرا مستقيما عن أحاسيسه غير متكلف الشبيهات القدماء واستعاراتهم – على نحو ما صنع شوقى – ومن هنا فإن القصيدة أصبحت عملا ذاتيا تاما تجلت فيها الوحدة الفنية

---

(١)المرجع السابق ص٢٣ – ٢٥

(٢)المجلة المصرية عدد يوليو ١٩٠٠م

(٣)أنظر مقدمة الديوان ص٩

على ما سيأتى أبينه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

هذا. وقد تضافرت عدة عوامل فتحت أكمام الشاعرية عنده فجعلته ينطلق بالشعر بل وجعلته رائدا من رواد التجديد فى العصر الحديث.

وفى إمكاننا أن نجمل تلم العوامل فيما يلى:

١-نشأته فى بيئة عربية:

فقد عرفنا أنه ينتمى إلى أصل عربى خالص وكان أبوه يحفظ الشعر الجاهلى وأمه وجدته لأمه كانتا تقرضان الشعر. ولا يخفى ما لهذه النشأة من أثر فى صقل الموهبة الشعرية عنده. هذا الأثر الذى تجلى فى احتفاظه للشعر العربى بإطاره القديم، من حيث الوزن والصياغة فهو ينظم من نفس الاوزان القديمة وعلى طريقة العرب. ثم هو يحتفل بالمادة اللغوية والقوالب التى يصب فيها أفكاره، فلا عامية ولا ابتذال ولا إسفاف، بل دائما الأسلوب العربى الرصين الذى أحكم غاية الإحكام.

وهذا الجانب فى شعره يستحق عليه الثناء، إذ عرف كيف يوازن بين التجديد والتقليد فأخذ من الشعر القديم خير ما فيه كل: أخذ الوزن والصياغة، ثم استطاع بمهارته أن يودع فى هذا الإطار موضوعاته الجديدة، من قصصات ووجدانيات، وما يرتبط بها من انفعالات وتخيلات وتأملات فى الكون والحياة.

وقد كان للطبيعة اللبنانية أثر بارز فى شعره فى الطبيعة – وفى

غير الطبيعة – وقد نشأ فى لبنان ودرج بها، وتثقف على أيدى أساتذة إجلاء، كان لهم فضل كبير فى صقل موهبته الشعرية منذ حداثة سنه، وقد تعلم العربية وحذقها على يد الشيخ خليل اليازجى والشيخ إبراهيم اليازجى. وقد تعلم من الشيخ خليل " أن الشعر يسلس قيادة لمن يحفظ الدواوين والمعجمات، ويعى فى صدره مختارات الفصحاء من الكتاب[١]، وتعلم من إبراهيم " مذهب الإتقان" لا يخلق جديدا وإنما يتقن ما يصنعه[٢]

وقد كانت ملامح التجديد فى البيئة اللبنانية قد ظهرت مبكراً فبدأت تهبط إليها البعثات الرهبانية فى أواخر القرن السابع عشر، فكان ذلك إيذانا بفجر النهضة الحديثة. ذلك بأنه قامت فى هذه الربوع على التعليم إلا أنها لم تقصره على أمور التبشير والدين وإنما اتسعت فيه قليلا فكانت تدرس شيئا من الحساب واللغة الفرنسية واهتمت باللغة العربية وبعض علومها الأولية على نحو مخصوص.

ولا يقف فضل هذه البعثات عند هذا الحد وإنما يمتد إلى جهود الرهبان أنفسهم وإلى ما اختصوا به اللغة العربية وآدابها من البحث والنظر، وهو فضل له قدره واعتباره، ذلك بأنهم منعوها فى هذه البيئة من سطوة اللغة التركية إلى حد كبير، فقد كانت التركية

---

(١)خليل مطران، أروع ما كتب ص١٢٣ محمد صبرى السربونى طبع دار الكتب سنة ١٩٦٠م.

(٢)المرجع السابق ص١١٨

لغة التعليم الرسمية فى مختلف معاهد العلم فى سوريا، وكانت اللغة العربية ثانوية وتدرس باللغة التركية لا اعتدادا بآدابها وتراثها وإنما نزولا على حكم التعبد وتلاوة القرآن(١)

وصلة مطران بهذه البيئة صلة غيره من أبنائها حيث كنت الهيئات الدينية على صلات وثيقة بأوربا منذ القرن الخامس عشر، فقد ساعد ترابط الشرق الأدنى بالوسائل الصناعية التى انتهى إليها الغرب بالعلم الأوربى على توافد البعوث إليها، وأصبح لبنان مركز نشاط عظيم وتنافس بين البعوث المختلفة التى ترجو نشر ثقافاتها ولغاتها الخاصة والتبشير بمذاهبها الدينية وتقوية نفوذ دولتها سياسيا واقتصاديا فكان من أثر هذه المحاولات أن شرعت العقلية العربية فى لبنان وسوريا وخصوصا فى بيئاتها المسيحية تنفض عن نفسها غبار الجمود وتعمد لمسايرة المدنية الغربية فى اتجاهاتها ومظاهر ارتقائها. وحدث رد فعل لهذه الحركات تمثلت فى الرجوع لينابيع الماضى فى الأدب والشعر واللغة، فكان من ذلك حركة بعث عظيمة للقديم فى لبنان تمثلت حينا فى مدرسة اليازجى.

وكان أثر هذا التطور كبيرا فى الشعر العربى الذى أخذ بداءة ذى بدء يتحول من المحاكاة الصرفة إلى محاكاة فيها شئ من التحرر

---

(١)تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر ص٧٢ حلمى على مرزوق طبع دار المعارف ١٩٦٦ الطبعة الأولى.

والشخصية وهذا ما يظهر فى شعر معظم شعراء القرن التاسع عشر، فى شعر اليازجى والبستانى فى لبنان وسوريا وفى شعر الساعاتى وعبد الله نديم فى مصر. وكان من آثار هذا التحرر وبروز الشخصية أن وجد الشعر الأوربى سبيلا للتأثير فى شعراء العربية، وهذا التأثير يبدو واضحا فى شعر عبد الله فكرى من شعراء مصر وشعر سليم عنحورى صاحب آية العصر من شعراء الشام غير أن هذا التأثر كان فى العموم بالمدرسة الرومانسية الفرنسية التى بلغت القمة فى شعر لامارتين إلا أن هذا التأثر لم يبد قويا فى الأغراض الشعرية وفى التحرر من روح النظم العربى ولكنه كان السبيل لأنقلاب خطير تمثل فى محاولة خليل مطران نقل الشعر العربى من ناحية الأغراض العربية لناحية الأغراض الأوربية، وبهذه المحاولة تميز الانفصال بين المذهب القديم الاتباعى فى الشعر والمذهب الجديد الإبداعى[١]

أضف إلى ذلك طبيعة لبنان الساحرة بأنهارها وجبالها ووديانها ووهادها وسهولها وجداولها وأشجارها وطيورها وسمائها ونجومها وكل ما يتصل بالجمال اللبنانى. كل ذلك كان له أثر عظيم فى نضج شاعريته وكانت الطبيعة مصدر إلهامه. وكثيرا ما رأينا تلك الطبيعة.

---

(١)أنظر شعراء معاصرون إسماعيل أدهم ص١٩٥ - ١٩٦ تحرير د/أحمد إبراهيم الهوارى طبع دار المعارف ١٩٨٤

يستظهرها فى شعوره حينما تجيش فى صدره الذكريات كما فى قوله فى قصيدة له عن لبنان:

تلك الديار أتذكرون جمالها بين السهول الخضر والأطواد؟
أتردها أحلامكم، أتردوها أوهامكم فى يقظة ورقاد
أما أنا فعلى تقادم هجرتى عنها، ودادى لا يزال ودادى
لبنانها ودمشقها وبقاعها وضياعها والبحر طى فؤادى[1]

٢-هجرته من أجل الحرية:

مطران عربى، والعربى يتدفق فى عروقه الدم الحار الذى يأبى الذل ويرفض الضيم والهوان، ولهذا فإن مطران ورث عن آبائه بغض الظلم والوقوف فى وجه الجبارين حين رأى وطنه يئن من وطأة الاستعمار العثمانى، خاصة وأن أمه قد روت له عن فرار جده والظلم الذى لقيه فنزع إلى الحرية وناصب الأتراك العداء الأمر الذى أدى به إلى الهجرة من موطنه إلى مصر فباريس " وفى باريس عاش قرابة السنتين واطلع عن كثب على الأدب الفرنسى، وعلى ألوان من الأدب الانجليزى ولا سيما أدب شكسبير واتصل بأحرار العرب والأتراك ممن انتظموا فى جمعية " تركيا الفتاة " ولكن عين السفارة التركية لم تنم عن تحركاته ونشاطه، فسعت لدى السلطة الفرنسية لتضييق الخناق عليه، فعمد إلى دراسة اللغة الاسبانية فقرر الرحيل إلى " شيلى" ولكنه ما لبث أن قرر تغيير

---

(١)ديوان الخليل ص٣٣٨ جـ١

وجهة سفره فاتجه إلى مصر عام ١٨٩٢م عازما على أن يعيش فيها ما تبقى من عمره بعدما كان قد استقر العديد من اللبنانيين فى أرض الكنانة، وأصابوا من النجاح فى أعمالهم قسطا عظيما، ولا غرو فى ذلك، فقد كانت مصر ولا تزال منتجع الأحرار وموئل الراغبين فى الكرامة والعزة القومية"(١)

وقد تركت هذه الهجرات أثرا حزينا فى نفسه فانطلق إلى الطبيعة يبثها آلامه ويشكو إليها أحزانه فى قصائد وجدانية كما فى قوله فى قصيدة " المساء"

إنى أقمت على التعلة بالمنى فى غربة قالوا: تكون دوائى
إن يشف هذا الجسم طيب هوائها أيطلف النيران طيب هواء؟
أو يمسك الحوباء حسن مقامها هل مسكة فى البعد للحوباء؟
عبث طوافى فى البلاد وعلة فى علة منفاى لاستشفاء
متفرد بصبابتى، متفرد بكآبتى،متفرد بعنائى(٢)

٣-تجربته العاطفية:

كان الحب فى حياة مطران أحد العوامل التى جعلت منه شاعرا وجدانيا تتفجر على لسانه ينابيع عاطفته، وهى ينابيع حارة، ظلت تتدفق ولم يستطع لها دفاعاً.

فقد أحب وهو فى الخامسة والعشرين من عمره فتاة التقى بها حين

---

(١)خليل مطران شاعر الأقطار العربية د/ فوزى عطوى ص٤١
(٢)ديوان الخليل ص٣٣٨ جـ١

كان يروح عن نفسه فى أحد متنزهات القاهرة وقد ساق القدر إلى طريقة نحلة بدلت تاريخ حياته، وجعلت بقية عمره حبا وشعرا ودموعاً وذكريات.

لقد وقعت النحلة على فتاة كانت تمشى فى المنتزه، فلسعتها، فتلوت الفتاة من ألم اللسعة فتأود قلب الشاعر الشاب خليل مطران وحقد على النحلة، وهم بأن يطير خلفها ليصرعها انتقاماً للحسناء، وضحكت الحسناء... ثم عطفت عليه بنظرة داعبة، وتحدثا وطال الحديث. ونظم مطران يومئذ مطلع ملحمته الكبرى " حكاية العاشقين"

أفتدى من لسعتها نحلة تطلب وردا
ظنت الوجنة ورداً فأتت ترتشف شهدا[١]

ومرت الأيام، والحب يكبر وينمو، ومطران يطلع الناس كل يوم بقصيدة تذوب وجداً، وهو مع كل هذا جد حريص على أن يكتم عن الناس اسم محبوبته، فيبتدع لها فى كل قصيدة اسما جديدا، فهى مرة ليلة ومرة هند... ومرة سعاد.

وهى تسأله عن ذلك مستريبة متشككة، فيقول لها:

يا منى القلب ونور العين مذ كنت وكنت
لم أشأ أن يعلم النا س بما صنت وصنت

---

(١)خليل مطران شاعر الأقطار العربية د/ فوزى عطوى ص٦

إن ليلاي وهنـــدي وسعادي من ظننـــت

تكثر الأسماء، لكن المسمى هو أنت[١]

ويطرأ على قصتهما ما يطرأ على قصص الحب المسرحية من انفعالات وتطورات وأحداث.. إلى أن تنتهى القصة بمرض محبوبته بداء عضال، وتصعد روحها إلى بارئها، وتترك وراءها شاعرا يقسم بحبها أن لن تكون بحياته أمرأة بعدها.. ويبر الخليل بقسمه، ويعيش أعزب إلى آخر يوم من حياته، لا ينساها، ولا ينسى أن ينتزع من أعماق قلبه فى كل عام قصيدة ينظمها فى ذكرى وفاتها.

ومن هذه " الحوليات " قصيدة " كان " التى تسيل رقة موسيقى وألما وحسرة على حبيبة راحلة، يقول مطران فيها:

سررت فى العمر مرة وكنت أنت المسره

كانت حياتى روضا وكنت فى الروض نضره

وكان غصنا شبابى وكنت فى الغصن زهره

وكان فكرى سماه وكان حبك فجره

وكان حسنك يوحى إلى يراعى سره

وكان لحظك يهدى إلى بيانى وسحره

وكان ثغرك يملى على سماعى دره

وكان طيبك يهدى إلى ثنائى نشره

---

(١)الديوان جـ١ ص٢٦٤

وكنت للروح روحا وكنت للعين قره
قد كان هذا ولكن مضى وأخلف حسره
فبت لاشئ إلا حالين ذكرى وعبره[١]

وهذا الجانب عند مطران يفوح على قارئه بشذى وجدانى ينفذ إلى قلبه ووجدانه وأعماقه وهو يمد عين بصيرته فيه إلى عناصر الطبيعة على نحو ما يصنع شعراء الغرب، فإذا هو يحيلها كائنات حية، تنعكس عليها أحزانه وآلامه وحبه وعواطفه ونوازعه.

ومن أروع ما يصور ذلك كله عنده قصيدة المساء[٢]

ومن أجمل قصائده فى هذا الجانب " وردة ماتت "[٣] " والنوارة أو زهرة المار الغريث "[٤] و " بنفسجة فى عروة "[٥] و " نرجسة "[٦] و "من غريب إلى عصفورة مغتربه "[٧] وهو فيها جميعا يبتكر فى المعانى، فيحلل الأحاسيس، ويأتى بأخيلة جديدة، ويطوف بنا فى خواطر خلجات إنسانية حزينة.

---

(١)ديوان الخليل جـ٣ ص٣٤٠
(٢)المصدر نفسه جـ١ ص١٧
(٣)المصدر نفسه جـ١ ص٢٥٩
(٤)المصدر نفسه جـ٣ ص٢٨٨
(٥)المصدر نفسه جـ٣ ص٣٣٢
(٦)المصدر نفسه جـ٢ ص٢٩٤
(٧)المصدر نفسه جـ٢ ص٣٠٩

الفصل الثانى

مظاهر الطبيعة عند مطران

هام الشاعر خليل مطران بالطبيعة حين رأى فيها الدواء إذا عز الدواء، والنصير إذا قعد النصير عن نصرة صاحبه، فهرع إليها يستنجد بها، ومن ثم صارت الطبيعة بكل أشكالها وألوانها أماكن يفرغ فيها كل همومه.

ومن هنا وجدناه لم يدع مظهرا من مظاهرها إلا تناوله فى شعره: تناول الطبيعة الصامتة كما تناول الطبيعة الحية مائلة فى كل كائن حى عدا الإنسان. وجاء شعره عن الطبيعة متعدد الالوان، حاملا كثيرا من أجناسها فى دقة واستقصاء.

وكيف وقد رأى أن الطبيعة مصدر كل فن ؟! ففى قصيدة له يتحدث عن مظاهر الطبيعة بختمها بقوله:

كل هذى الآيات مبعث وحى للنظيم المجاد أو للنثير
كل هذى الآيات تؤخذ عنها رائعات التمثيل والتصوير
كل هذى الآيات يجمع منها نغم الحزن أو نشيد السرور
معجزات فى كل آن تراها باهرات التنويع والتغيير[١]

وإذا رحنا نبحث عن شعره فى الطبيعة نستبين منه مظاهرها فإننا نجده قد أحصى كل مظاهرها من شمس وقمر ونجوم وكواكب

---

(١)الديوان جـ١ ص٢٤٤

ورياح وسحب ونباتات ومياه وثلوج وما إلى ذلك من مظاهر الكون العلوية، كما نجده تناول بالوصف الطبيعة الارضية: جبالها، ووديانها، وأنهارها وبحارها، وأشجارها، وزهورها وطيورها وحيوانها.

كل ذلك غاص فيه الشاعر بوجدانية جياشة، ومشاعر حساسة، وشاعرية متاججة تفيض رقة وسلاسة، فكانت صدى لما نفسه، وتعبيرا عما يجيش فى فؤاده على حد قوله: " وليس أكثر شعرى هذا بين الطرس والمداد إلا مدامع ذرقتها وزفرات صعدتها، وقطع من الحياة بددتها، ثم نظمتها فتوهمت أننى استعدتها[١]

ويعود فيقول: " هذا شعرى وفيه كل شعورى، هو شعر الحياة والحقيقة والخيال قيدت فيه زفراتى وأحلامى، وسجلت بقوافيه أحداث زمانى وبيئتى فى دقة واستيفاء"[٢]

فهيا بنا إلى ديوانه نستظهر منه – بقدر ما يسمح به المقام – بعض مظاهر الطبيعة من شعره فيها.

ولكن قبل أن نلج غمار هذه المظاهر الطبيعية أود أن أنوه بأمر جدير بالتنويه إليه، وهو أن " مطران " وهو يرتاد رياض الطبيعة كان لا يعتمد على تشخيصها فقط، وإنما كان يخلع عليها الحياة.

ومن هنا جاءت الطبيعة عنده ثمرة إتساع الشعور والخيال، وهو ما

---

(١)مقدمة ديوان الخليل ص١١

(٢)المصدر نفسه ص١٣

تميز به عن كثير من شعراء العربية الذين يحدثون مظاهر الطبيعة وتحدثهم مظاهرها.

يقول إسماعيل أدهم " فحياة الطبيعة عند خليل مطران ليست من قبيل تجريد الشخوص من الطبيعة ومخاطبتها، وإسناد صفات الأحياء إليها كما هو شائع عند شعراء العرب الذين يحدثون مظاهر الطبيعة وتحدثهم مظاهرها، ولا هى نتيجة للمجاز أو التشبيه الذى تسوق إليه ضرورة اللغة، فتسند الأوصاف الحية إلى الطبيعة الجامدة، وإنما هى نتيجة التعاطف بين وجدان الشاعر والطبيعة يضرمه سعة الخيال وزخوره، هذا التعاطف الذى ينتهى بمطران إلى النفوذ إلى أعماق الطبيعة. كما أنه يمكنه من النزول إلى أعماق الطبيعة البشرية، ويترجم عن العواطف والمشاعر.. ومن هنا كذلك يمكننا أن نقول إن الطبيعة الجامدة تتجلى لمطران على اعتبار أنها قلب نابض وحياة تتدفق فى أعطاف الكائنات وشعلة تتأجج فى الأشياء. ومن هنا جاء حنين الريح وزفيرها، وأنين الحياة التى تذوب منها الصخور، وحيث النسيم الذى يهب على المروج، وتفكير الأزهار والنجوم، الذى يحكيه عنها التعبير فى قصيدة " بدوزى وبدر السماء" وكل هذا يثبت أن مطران يخلع على الطبيعة ذاتا حية ويساجلها العطف"[١]

---

(١)إسماعيل أدهم ناقدا در أحمد إبراهيم الهوارى ص١٧٠ طبع دار المعارف سنة ١٩٩٠ م وشعراء معاصرون جـ٢ ص٣٦٩ تقديم " أحمد إبراهيم الهوارى " طبع دار المعارف سنة ١٩٠٤م

حبذا هذه الثمار الرضيعا ت تعلقن كل طفل بنهد[١]

فهو لا يعنى بالأصباغ والألوان والأشكال فقط، وإنما ينفذ من ذلك إلى المعانى يبث فيها الحياة[٢]

وعلى كل حال فمطران قال وهام فى النباتات بأنواعها من اشجار وغابات. ولكنى سأكتفى بنوعين وهما الأزهار والورود حيث حفل شعره بهما أكثر من غيرهما من أنواع النباتات الأخرى.

ومن ثم فاحت الأزهار بأنواعها فى شعره فلم يخل غرض من أغراض شعره تقريبا منها.

وقد كان شديد الإعجاب بها، أثير الحب لها، فهى -عنده- مخلوق عجيب، خلقت للخير: نفعها دائم وشأنها التضحية وإنكار الذات، فلا تتيه فخرا ولا خيلاء ولا تضن بخيرها على جيرانها، ومن قصدها وجد عندها بغيته:

إنما الزهرة خلق عجب فطرة سمجاء تسمو الفطرا

خلقت للخير خلقا صافيا جاوز الضيم وفاق الغيرا

شأنها تضحية النفس ولا شئ غير النفع تبغى وطرا

ولغير الفخر حلاها الندى ولغير الذكر فاحت عنبرا

فلمن جاور أهدت نفحة ولمن طالع أهدت منظرا

---

(١)الديوان جـ١ ص٣٤٧

(٢)خليل مطران شاعر القطرين جـ٤ ص٣٨ لإيليا حاوى.

وأباحت جيدها من يبتغى سلوة أو زينة أو مظهرا[١]

ومطران يراها متعة حسية ومعنوية، فهى أنس من لا أنس له، وهى كذلك مصدر السرور، إذ أنها صفو من كدرت حياته، كما أنها رمز الشفاء، يشفى بها العليل، وهى قبلة المشتاق لمن أضناه الحب ولوعة الفراق.

هى أنس المرء فى وحشته وهى الطفولة إن كدرا

وهى القبلة فى مرشف من شاقه لثم حبيب هجرا

وهى النفحة يستشفى بها من تلظى وجده مستعرا[٢]

ولشدة إعجابه بالزهر يطلب من رفيقه أن يصفه لرفاقه مبيناً لهم فضله فيقول:

صف للرفاق ما ترى من زهر ومن زهر

أنشدهم ما يجلب الصفا ء أو ينفى الكدر[٣]

ولهذا نراه يأسى حينما يرى الأغرار من العشاق يعبثون بزهرة النوارة أو زهرة المرغريت -كما أطلق عليها- فينثرون أوراق هذه الزهرة، واحدة بمعنى " نعم" والثانية بمعنى "لا" بقصد أن يتبينوا فى نهاية العدد أتحبهم التى يعشقونها أم لا.

---

(١)الديوان جـ٢ ص٥٣

(٢)الديوان جـ٢ ص٥٤

(٣)الديوان جـ٢ ص٢٠٧

ويعجب الشاعر من هذا الصنيع الأخرق والعبث بهذا الجمال، ويبدو أنه سولت له نفسه يوما ما أن يشارك هؤلاء صنيعهم وعبثهم بعد أن كبر سنه فقال:

أراجع نفسى هل أنا ذلك الذي عهدت بأمسى أم أنا رجل ثان؟
علمت صنوف العلم درسا وخبرة فمالى بلغت الجهل فى منتهى شأنى؟
أراني بعد الشيب عاودنى الهوى فرد صبى الدنيا على وأصبانى
غدوت كأنى ما عرفت حقيقة وهل أنا إن يدع الهوى غير إنسان؟
فيالى من كهل يرى وهو جاثم كطفل على شئ بقلبه حان
يكفى من النوار ذات أشعة لها قرص شمس زانه تاج ألوان
فبينا أجيل الطرف فى قسماتها ونم فنون من جمال وإتقان
إذا أنا للتاج المنظم ناثر تباعاً ولى فى ذلك ترويد صبيان
أسائل أوراقا -ويا ليت شعرها- أتهواني الحسناء أم ليس تهواني؟[1]

وزهرة القطن يراها مطران رمز الوفاء والفداء فتملك عليه نفسه وتستبد بمشاعره وإحساسه، فيصف مجنى القطن- وإن كان وصفا خارجيا لم يسفر عن أغوار نفسه فلم يرتفع بأزهاره فى هذا المواطن كما أرتفع فى مواطن اخرى، إلا أنه ينم عن شاعرية متدفقة جمعت نقاء اللفظ، وشرف المعنى، وحلاوة الجرس، وصحة الخيال

إذ يقول:

---

(١)الديوان جـ٣ ص٢٨٨

هبت صبيات المزارع بكرة ويخطرن بين السير والإسراء
من كل عاصية النهود بها تقى مطواعة الأعطاف ذات حياء
نادى بها البشراء حى على الجنى فغدت تلبى دعوة البشراء
والقطن موف ضاحك ببياضه وصفائه من كدرة الغبراء
يشققن مثل الستر من جنباته ويخضن شبه البحر فى الأثناء

متغنيات من أهازيج الصبا ما شاء وحى هوى وطيب هواء
ينشدن من وصف المخيلة جلوة لعروس شعر زينة هيفاء[1]
ويسترعى نظره ما يراه من تعلق فتيات المدارس والجامعات بالزهور وحرصهن عليها حرصهن على الكنوز فتراهن يطوين دفة كتاب يطالعنه على زهرة حتى تذبل ولكن لا تزال رائحتها تضوع يرمز بذلك إلى بقاء الذكريات الجميلة وخلودها فيصوغ ذلك شعرا يفيض رقة وسلاسة فيقول:

قد تخبئ البكر فى كتيبها زهرة روض كالكنز تستتر
تذبل فيه حتى تموت وما تزول؟ لكن يبقى لها أثر
تخط رمزاً، وعل ما رسمت فى لغة ما، هو اسمها العطر[2]
والظهور عند مطران لها من الصفات الجميلة ما للعقلاء ففى مقطوعة "إهداء باقة" أزهار إلى سيدة أفرنجية نراه يخلع على

---

(١)الديوان جـ١ ص٦١
(٢)المصدر نفسه جـ٢ ص١٩٣

الباقة من صفات الإنسان العزة والإباء والشموخ والجمال والحياء يمز بها إلى السيدة المهدى إليها الباقة يقول:

هذه تحفة الرياض إلى من فاح فى الشرق طيبها وتأرج
هى بين الحسان زهرة أنس حسنها بالحياء منها مسيج
وعجيب جمع المهيمن فيها عزة الورد واتضاع البنفسج[1]

وزهرة النرجس عند مطران رمز الوفاء والحب تعاطفت مع " أمينة" عند استشهاد حبيبها فذبلت وجفت.

وقد استطاع مطران بروعة الألفاظ وجمال العرض وحسن الصورة وحرارة العاطفة وجلال الأسلوب أن يبرز لنا لوحة فنية رائعة خلع فيها على الزهرة صفة الحياة فجعلها تحس بفداحة الخطب فشاركت بحس وعقل تلك التى أصيبت بفقد حبيبها. فيقول:

داع دعاه إلى الجهاد فأزمعا سفرا وجاد بنفسه متطوعاً
غلبت حميته هواه لعرسه فنأى وودع قلبه إذ ودعا
وقضت "أمنية" بعده أيامها فى الحزن غير أمنية أن تفجعا
غرست بصحن الدار زهرة نرجس لتكون سلوتها إلى أن يرجعا
كانت تبالغ فى رعايتها كما ترعى عيون الأم طفلا مرضعا
حتى إذا ما جاءها عن بعلها نبأ أصم المسمعين وروعا
شقت مرارتها عليه وأوشكت من هول ذاك الخطب أن تتصدعا

---

(١)الديوان جـ١ ص٢٧٩

وكأن ذاك الرزء قبل وقوعه مما شجاها لم يكن متوقعا
فتفقدت صبحا أليفتها التي كانت سلتها حسرة وتوجعا
فإذا نضارتها ذوت وكأنها عين أسأل الحزن منها مدمعا(١)

ويبدع مطران فى وصف الأزهار فيصل إلى قمة الابداع والبداعة حين ينطقها ويبعث الحياة فيها فإذا الأزهار تفرح وتحلم وتتخيل وتبصر الجمال فى العرس ويطول حلمها حتى يطلع الفجر وينبثق عن تباشير الصباح فتنطلق الطيور شادية فى حفل العرس إذ يقول فى قصيدته " نفحة الزهر "

سرت الأزهار لما سمعت ذلك النطق الذكى الأنفرا
واستقرت ليلها هاجعة فرأت حلما جميلا فى الكرى
أبصرت عرسا بهيجا حافلا جامعا من كل جيل معشرا
طلت الرؤيا إلى أن لمست رائحة الفجر الدجى فانحسرا
وجلت عن يوم صفو شائق ذلك الستر المشوب الأغبرا
فتغنى الطير تبشيرا به وكسى الأفق الرداء الأزهرا
وبنات الروض وافين إلى محضر العرس فزن المحضرا(٢)

والورد عند مطران له حياة يحس ويخجل ويحكم، ومعان تجول بخاطره تحرك العقول وتحفز القلوب للوجد والهيام والوفاء فى

---

(١)الديوان جـ٢ ص٢٩٤ - ٢٩٥

(٢)ديوان الخليل جـ٢ ص٥٥ - ٥٦

الفداء، وكأنى به لا يصور نباتاً وإنما يصور أحياء ففى قصيدة " وردة ماتت" فينعى حبيبته فيقول:

أبكت الروض عليها جزعا وردة فى عنفوان العمر حانت
ليست زينتها عادية لشباب ثم ردت ما استدانت
لقيتها الأرض تكريما لها بين جفنين فعزت حيث هانت
وابنتت من صدرها قبرا لها جثت الحسنى عليه واستكانت
ذبل الريحان حزنا وبدت سنة فى أعين النرجس رانت
فى جنان الخلد عقبى حرة لم تمن يوماً إذا الأزهار ماتت[١]

وبعد فهذا عيض من فيض، ويطول بى المقال لو استقصيت كل ما قاله فى الأزهار وأنواعها وحسبى ما قدمت. ولننتقل إلى موضوع آخر.

ثانيا: المياه

الماء حياة كل حى. قال تعالى " وجعلنا من الماء كل شئ حى "[٢] وقال عز وجل " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة"[٣]

والمياه بأنواعها كانت مصدر إلهام الشعراء قديما هاموا بها وتتبعوا ينابيعها منهم يظعون فى إثرها ويشعلون الحروب من أجل

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٢٥٩
(٢)سورة الأنبياء الآية رقم (٣٠)
(٣)سورة الحج الآية رقم (٦٣)

بئر يتملكونها.

ولم يكن مطران منفصلا عن التراث الأدبى القديم، ولم يقطع صلته بأسلافه، مع الاختلاف فى تناوله لها إذ لم يجعل مواردها وحدها بغيته كما فعلوا، وإنما امتزج بها فشكا إليها وشكت له وحملها أسراره وألقى بهمومه فى أمواجها وقيعانها أضف إلى ذلك أن " مطران" عاش النشأة الأولى فى لبنان، ولبنان -كما نعلم- غنية بمصادر المياه التى زينت طبيعتها وجلت أوديتها وسفوحها، وبها أخضرت أرضها فبدت يكسوها السندس الأخضر- ولا شك فى أن هذا كان له أعظم الأثر فى نفس الشاعر فأثرى شاعريته وكان عاملا مهما فى نضوج ملكتها الشعرية فتحدث عن أنهارها وبحرها وعيونها وكم كانت له مع لبنان وقفات يستعيد فيها.

ذكرياته فهى مرتع صباه يحن إليها فينهكه الحنين وتهيج عنده معالم الذكريات وجمال الطبيعة فيها فيرسل النفرات الوجدانية فيقول:

يا جنة أهدت إلى سلاماً أهديت برداً للحشى وسلاما
أجريت واديك المبارك بالندى وركبت من متن الفخار سناما
فى كل مشترف جمالك رائع نثر البديع وصاغ منه نظاما
وعلى ذارك الصنوبر غابة تحيى النفوس وتبرئ الأسقاما[1]

وفى "جزين" مصيف لبنانى شهير بشلاله صورة حية من صور الطبيعة ترك أثرا فى نفس الشاعر وهز وجدانه فتحركت عاطفته

---

(١)ديوان الخليل جـ٣ ص٢٤٣

وانطلق يرسم لوحة تعبر عن جمال الطبيعة فيه حيث يجرى الماء سلسالا فى طهر ونقاء وعذوبة وصفاء. فرأيناه يهيم بشلاله فيصفه فى جمال حركى فيقول:

انظر بأيمنه إلى الـرأس الـذي يزهى بروعة تاجـه الرومـانى
تكسو جلالته الصباح وقـد بـدأ يـزدان بـالأنوار والالـوان
وانظر بأيسره إلى الطود الـذي فيه من الإبـداع فـن ثـانى[١]

وفى "رحلة" مهد صباه يفتن بطبيعتها أيما فتنه، ويرى فيها بهجة القلب وقرة العين وفى واديها السعادة والصفاء وفى مائها الصحة والشفاء.

ويصف " نهر العاصى" فى "حمص" يطيب مائه، ووفرة خيره، وأنه مفخرة أهل " حمص" فهو دائم النفع لهم. عبر عن ذلك فى قصيدة ألقاها فى حفلة حمص تحدث فيها عن نهرها فقال:

نهـــر أتـــم الله تعمتـــه بـــــه وأدام فضـــــله
أغلى مفاخر "حمص" فى الـدنيا وأغلاهـــــا محلـــــه[٢]

ويبهره جمال نهر " بردى " فيشرع فى وصفه مبينا آثـاره علـى الحدائق والرياض والسهول والوديان فى إيقاع موسيقى جميل من قصيدته " دمشق " يقول فيها:

من لى بوصف جمالها وجمالها يعيـان الواصـف المجـوار

---

(١)المصدر نفسه جـ٣ ص٣٦٧
(٢)الديوان جـ٣ ص٤٨٣

"برى" ونضر غياضه ورياضه نعم الحياة تجمعت فى واد
ماذا يريكم من روائع حسنها تصويرها ببراعة ومداد
كم فى الحزون وفى السهول وراءه عجب يروع نواظر الأشهاد
آيات تدبيج يتم رواؤها بتلمع الأنهار فى الأراد

ويسترسل إلى أن يصل إلى مصدر المياه وهو السحاب فيقول:

ويكاد بحر الآل فى أطرافها يشجو السماع بموجة الهداد
حتى يصير مدى محاسنها إلى سفح يطوقها بطوق جساد
عال ذراه يلوح فوق بياضها جمر الغمائم من خلال رماد[1]

حتى إذا ما رحل إلى باريس ورأى نهر " السين " بشواطئه الجميلة وضفافه البهيجة وهو الرومانسى المتأثر بالرومانسية الفرنسية فيبهر بحسنه وجمال منظره فإذا طغى حتى أهلك الزرع والضرع رآه مصدر ظلم وفساد وجور وظلم بالعباد.

فتأسى الشاعر لهذه الحال وسكب عبرات وجدانية تنم عن زفرات إنسانية يقول فيها:

أمن الفساد طغيت نهر "السين" أم لست فى دنيا ولا فى دين؟
تلك المياه تجمعت وتدفعت عن دجن أخلاف ودكن عيون
طمت فعمت بالبوار ولم تزر حقل الفقير ولا حمى المسكين
خرساء أو هدارة فى سيرها جرافة بالعنف أو باللين

---

(١)الديوان جـ١ ص٣٣٩ - ٣٤٠

حتى إذا داق العقيـق وضـمها سدان من صـخر أصـم متـين
جست أساسهما تعـالج نقضـه فعصى فمرت بأصطحاب جنـون
وتراكبت لتنـال مـن أعلاهمـا فتدكه خلـوا مـن التمكـين[١]
وتنساب عليه الذكريات متدفقة تذكره بطبيعة لبنان الساحرة، حـين ينشد قصيدته " هل تذكرين " فى الحفلة التى أقامهـا لأبنـة عمـه "تجلاء الصباغ " حين وفدت إلى مصر وأقيم لها احتفال فأخذ يسألها والشوق يحدوه، والحنين إلى وطنه الأول يملك عليه أقطار نفسـه يقول لها:

والنهر، هل هو لا يـزال كمـا كنـا لـذاك العهـد نألفـه
يسقى الغيـاض دلالـه الشـبما ويزيـد بهجتـه تعطفـه
ينصب مصطحبا علـى الصـخر ويسـير معتـدلا ومنعرجـا
مـتخللا خضـر البسـاتين مـتهللا لتحيـة الشـجر[٢]

ولا يزال يذكر موطنه الأول بالحب والحنان "لبنان"، وما فتئ قلمـه وعقله مما يتعلقان بها يذكر مناظر جباله الشامخة، وما فيها مـن عيون جارية، ومياه عذبة صافية هى للقلب شـفاء وللعـين قـرة فكانت إسراء للروح والعقل إلى ما وراء الطبيعة. وفى آبيـات لـه يصف البحر نافذا من وراء الوصف إلى الإشارة بالأمجاد والإعزاز

---

(١)ديوان الخليل جـ٣ ص٤١٠ - ٤١١
(٢)ديوان الخليل جـ٣ ص٤١٧

بالحضارة القديمة والدعوة إلى وصل الجديد بالقديم حين يدعوا أهل "فينيقيا" إلى الفخر بحضارتهم حاثا لهم على أن يأخذوا من حضارتهم القديمة دافعاً إلى وصل الماضى بالحاضر حفاظاً على الماضى العريق فيقول من قصيدة ألقاها فى حفلة أقامها فى النادى الشرقى بالقاهرة وشهدتها الجالية اللبنانية والسورية للتأليف بين القلوب. هى وقصيدة طويلة جمع فيها فضائل سوريا ولبنان.

وبعد أن تحدث عن دورهما فى بناء الحضارة، أخذ يتحدث عن جمال الطبيعة فى تلك الديار. قال:

تلك الديار أتذكرون جمالها بين السهول الخضر والأطواد
أتردها أحلامكم، أترودها أوهامكم فى يقظة ورقاد؟
أما أنا فعلى تقادم هجرتى عنها، ودادى لا يزال ودادى
"لبنانها" و"دمشقها" و"بقاعها" وضياعهما والبحر طى فؤادى[١]

أما عن البقاع فيقول:

أما "البقاع" فجنة لم تخل من أهل التقى وخلت من الزهاد
طابت عناصرها فنفحة تربها عطرية غب السحاب الغادى[٢]

إلى أن يصل إلى البحر.

وكم شكا إلى البحر وأسكب عنده العبرات فى مشاركة وجدانية يبث شكواه إليه، ويبثه البحر كذلك شكواه فى حالة يظهر فيها التعاطف

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٣٣٨

(٢)الديوان ص٣٤٠ جـ١

بين قلبه وبين قلب البحر على أبلغ وجه إذ يقول:

شاك إلى البحر اضطراب خواطرى فيجيبنى برياحه الهوجاء

ثاو على صخر أصم وليت لى قلبا كهذى الصخرة الصماء

ينتابها موج كموج مكارهى ويفتها كالسقم فى أعضائى

والبحر خفاق الجوانب ضائق كمدا كصدرى ساعة الإمساء[١]

ولم يكن لمطران أن يجحد فضل نيل مصر وما يضفيه هذا النهر الخالد على الطبيعة المصرية من سحر خلاب. ومن هنا فقد هام بالنيل وفتن بجماله الساحر، فهو رمز الجمال وشريان الحياة يقول عنه:

فى رياض النيل كم من مستنزه تملأ العين حلاه الشائقات

لاعتدال الجوفية عزة بالتواء الشجرات الباسقات[٢]

والنيل رمز الجود والبركات:

والنيل والملك المنيل كلاهما بحر يفيض بسابغ البركات

ولهذا فهو يستعير صفات النيل من كرم وجود وعطاء ليخلعها على أم المحسنين فيقول: بعد أن فرحت بقدومها الطبيعة على اختلاف مظاهرها:

فاض مجرى النيل من ينبوعه باسطا أذرعه للمستقين

يحمل الخصب وما عنصره غير ما يهدى من الكنز الثمين[٣]

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص١٨

(٢)الديوان جـ١ ص٢٧٢

(٣)الديوان جـ٣ ص٣٣١

كل عين منه تصب صبيا كالآتى المجلجل المحدور[١]

وهكذا احتل نهر النيل مساحة واسعة من شعر الخليل حتى إنه خلع على ممدوحيه صفاته كما رأينا فى قصيدته " أم المحسنين "

وكقصيدته التى ألقاها لحافظ إبراهيم تكريما له فى الحفل الذى أقيم له عام ١٩١٢م حيث ضفى على شعره صفات النيل من جهة الجودة، والرى، والعذوبة، والصفاء، والرقة، والسلاسة. وكلها صفات مشتركة بين الشاعر والنيل فيقول:

يا شاعر النيل جارى النيل فى الشيم وحاك أطياره بالشدو والنغم

فى ضفتيه وفى تغريد صادحه ما فى نظيمك بين الوحى والكلم

وفى معانيك من أرواح جنته أشفى النسيمات للأرواح والنسم

شعر كأن مفيض الخير سال به على النهى سيله فى القاع والأكم

ويختم قصيدته بالاشادة بحضارة مصر ماثلة فى نيلها وهرمها ويقول:

هذا الذى أنت يا ابن النيل فاعله وذاك مجدك مجد النيل والهرم[٢]

ثالثا: الكونيات:

وأقصد بها الليل والنهار، والشمس والقمر، والضياء، والظلام، والنجوم والكواكب، وهذا ما يطلقون عليه إسم "الطبيعة الصامتة" وهى أظهر مظهر طبيعى لجأ إليه شعراء الرومانسية يبثونه آلامهم

---

(١)الديوان جـ٢ ص٢٢٣

(٢)ديوان الخليل جـ٣ ص٢٤٥ - ٢٤٧

وأحزانهم ويودعونه أسرارهم حيث لا تبوح الطبيعة بالأسرار.

ولقد عرفل الشعراء العرب قديما تلك الكونيات وتناولوها بالوصف فى أشعارهم، وجردوا منها شخوصا خاطبوها وأسندوا صفات الأحياء إليها عن طريق المجاز أو التشبيه.

ولكن مطران تميز عن كثيرين منهم فى مواقفهم من هذه الكائنات، حيث استطاع أن ينفذ إلى أعماق هذه الكونيات نتيجة التعاطف بين وجدانه ووجدانها. " ومن هنا يمكن أن تقول إن الطبيعة الجامدة تتجلى للشاعر – خليل مطران – على اعتبار أنها قلب نابض وحياة تتدفق فى أعطاف الكائنات، وشعلة تتأجج فى الأشياء. ومن هنا جاء حنين الريح وزفيرها، وأنين الحياة التى تذوب منها الصخور، وحيث النسيم الذى يهب على المروج، وتفكير الأزاهر والنجوم الذى يحكيه عنها العبير فى قصيدة " بدرى وبدر السماء" وكل هذا يثبت أن مطران يخلع على الطبيعة ذاتا حية ويساجلها العطف"[١]

لقد أستطاع " مطران " أن يجعل من هذه الكونيات ذواتا أحياء عاقدا معها صداقة قوية بحيث تهيم بهيامه وتأسى لأساه. فها هو ذا يخبرنا فى قصيدته " مشاكاة بينى وبين النجوم "[٢] أن النجم أحل به مثل ما أحل به، ولذا رأى النجم مؤرقا مثله فيقول فى قصيدته تلك:

---

(١)إسماعيل أدهم ناقدا / د. أحمد إبراهيم الهوارى ص١٧٠ دار المعارف مصر سنة ١٩٩٠م

(٢)ديون الخليل جـ١ ص١٣١

أرى مثل سهدى فى الكوكب أحل به مثل ما حل بى
يهم هيامى من وجده ويهرب من مهده مهربى
فيلازمه ولا يفارقه فيرى فيه مثل ما به إذ أن " المصائب تجمعن المصابينا " على حد قول شوقى. لذا رأينا مطران يقول فى القصيدة ذاتها:

إذا سرت بحرا أراه به أنيسى عن جانب المركب
وإن سرت برا يجارى خطاى ففى الشرق أنا وفى المغرب

وحين يستشف أن النجم به من الهموم، ما ينوء به، ومن حرقة الجوى أكثر مما عنده نسى الشاعر همومه ورق له، وطلب منه أن يبوح بما عنده، لعله يجد عند الشاعر السلوى فناداه:

رفيق السرى فيك جمر يذيب وإن سال كالدموع السيب
أسر هواك إلى صاحب يؤاخيك فى همك المنصب
وبى مثل ما بك من شاغل ولى مثل مالك من مأرب
فتاة كصوغ الضياء إليها تتاهت منى قلبى الموصب
من الحور دان فؤادى بها ووحدها الحب فى مذهبى
فإن كنت يا نجم طالعتها وقد سفرت لك فى مرقب
فأنت إذن فى الهوى عاذرى ولست لسهدى بمستغرب[1]

والشمس لها نصيب كبير فى شعر مطران فقد احتلت مساحة كبيرة

---

(١)المصدر نفسه جـ١ ص١٣٢

من وجدانه فهي في وجدانه وبين جوانحه: فـي شـروقها وفـي غروبها، وفي قصيدته " شروق شمس في مصر " التي ألقاها فـي اجتماع لعلماء مصر وأدبائها رأيناه يتخذ من الشمس رمزا لمصر، والآثار الطيبة التي تترتب على شروقها - حيـث النـور والحيـاة والنماء - رمزا للعلماء والأدباء فيقول:

هذه الشـمس أذنـت بالسـفور بعـد سـبق الآيـات بالتبشـير
فتلقـى ظهورهـا كـل حـي بنشـيد التهليـل والتكبيـر
هـي بكـر الوجـود لا يتملـى مجتلاها إلـى شـهود البكـور
أرأيت الصـباح يكشـف عنهـا كلة الليل من حيـال السـرير؟
فتهادى ستر الـدجى وتـوارى ما عليـه مـن لؤلـؤ منثـور
حيث الكون حين لاحت فأحيـت كل عـود، لهـا جديـد نشـور
حيثما طالعـت مظنـة خصـب أسفر الترب عن بنـات نضـير
وانجلى لحظها عن الزهر الغض وعذب الجنـى وطيـب العبيـر
وعوالى النخيل خصير الأكاليل زواهى المرجان حول النحور برزت
في الغداة غادة وادى النيل تخفى جمالها في الحبير لونهـا ظـاهر
انتساب إلى الخمر له مثل فطها في الصدور
غض من صوتها الحياء فأحبب بحياء فيـه حيـاة الشـعور[1]

ومع أن الغرض الأساسى للقصيدة هو المدح إلا أنها حفلت - كمـا

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ص٢٢١

رأينا- بألوان الطبيعة فى لفظ رائق وتصوير بارع وخيال فريد.

وفى سحر أخاذ ووصف بديع يتناول وصف الشمس حين غروبها فى ريف مصر وكان قد رجع من رحلة له فى صعيدها. يقول:

وللشمس فى المنتهى مغرب رأينا به آية من عجب
رأينا من الغيم طوداً رسا على أفقها وسما واشرأب
بجسم ظلام وقمة تسير وسفح تعاريجه من لهب
كأن الأشعة أثناءه مغاور فى منجم من ذهب[١]

وفى نهاية القصيدة يرد هذه الإبداعات الكونية إلى الخالق سبحانه وتعالى " الذى أحسن كل شئ خلقه" فقد صنعها بإحكام ونوع أشكالها بإتقان:" صنع الله الذى أتقن كل شئ" ولذا يقول:

وكم من جنان وكم من قرى وكم من صروح وكم من قبب
تصاوير يصنعها ماهر من الغيب يبدعها ما أحب
يظل ينوع أشكالها دراكا ولا يعتريه نصب[٢]

وفى قصيدته الشهيرة الذائعة " المساء" يتدفق وجدانه وتنساب خواطره وتأملاته، فقد رأى فى الشمس الغاربة خير رفيق يشبه حاله حاله، فلم لا يبوح لهذا الرفيق بهمومه وأحزانه ؟ ولم لا يندمج مع هذا المنظر الذى يشهد موت الشمس حين غروبها، لعله

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص١٧٨
(٢)المصدر نفسه جـ ص١٧٨

بهذا الاندماج يخفف شيئا من لواعج هـواه ؟ فـراح يتأمـل فـى الغروب، نافذا منه إلى حالته النفسية، إذ وجد أن الغروب يصـرع النهار ويقتل الشمس، وأن الشعاع الشاحب المترامى على الافـاق مظهر لمأتمها، وقد كانت الشمس –أبدا– رمزا للحياة.

" وربما رمز مطران بالنهار والشمس إلى كل أمر من أمور الحياة: الشهرة، العافية، السلطة، القوة، الجمال، يسطع نهارها ويتألق، ثم تخبو شمسها وتغيب – والنهار يعنى – كذلك – الوضوح واليقـين. أما المساء الذى ينذر بقدوم الليل فإنه يحيل الأشياء إلـى أطيـاف وأشباح، يزيل حقيقتها، ثم يأتى الظلام فيطمسها.

يقول مطران:

يا للغروب وما به مـن عبـرة للمسـتهام وعبـرة للرائـى
أو ليس نزعا للنهار وصـرعة للشمس بين مـآتم الأضـواء؟
أو ليس طمسا لليقـين ومبعثـا للشك بـين غلائـل الظلمـاء؟
أو ليس محوا للوجود إلى مدى وإبـادة لمعـالم الأشـياء؟
حتى يكون النور تجديـدا لهـا ويكون شبه البعث عـود ذكـاء

ثم يفصح الشاعر عن حالته النفسية عند الغـروب، فهـو دامـى النفس، ممزق الوجدان تنحدر دموعه فيما كانت الشمس تدنو مـن الأفق غيوما سوداء قاتمة، فبدت وكأنها دمعة حمراء بائسة تبكـى نهاية النهار، ممزوجة بدموعه الباكية مترجمة عما فى قلبه مـن الهموم والأحزان – وفى ذلك يقول مطران:

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء
وخواطرى تبدو تجاه نواظرى كلمى كدامية السحاب إزائى
والدموع من جفنى يسيل مشعشا بسنا الشعاع الغارب المترائى
والشمس فى شفق يسيل نضاره فوق العميق على ذرى سوداء
مرت خلال غمامتين تخدرا وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد مزجت بآخر أدمعى لرثائى

ذلك كله رسم لعينيه نهايته وموته المزمع حين تخبو أضواء عمره وشمس حياته فيقول:

وكأننى آنست يومى زائلا فرأيت فى المرآة كيف مسائى[١]

ويشده القمر وجماله، والبدر وبهاؤه، فيشدو بالقمر وضيائه فى ليلة مقمرة، والقمر يعكس صورته على صفحة مياه النيل الصافية، وقد رأى على شاطئ النيل فى ضوء القمر فتاة حسناء، ترتدى ملابس بيضاء، وقد خرجت مع رفاقها تستمتع بجمال الطبيعة، وما لبثت الفتاة أن تباعدت، وشرع الرفاق يبحثون عنها، فبصروها عن بعد، فإذا هى تلوح مرة وتختفى أخرى، كالطيف لتلاعب النور فى موقفها بين مصب النور ومنعكسة على مياه النيل. يصوغ الشاعر تلك الصورة الجميلة شعراً، مزواجاً فيها بين جمال الفتاة وجمال الطبيعة – فيقول فى قصيدة " اشتباه الضياء"[٢]

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص١٩

(٢)ديوان الخليل جـ٢ ص٣٢٨

وليلـــة بـــدر صـــفا جوهـــا وباح بسـر السـكون الحفيـف

وألقت بسـمع ظـلال الريـاض لنجـوى قلـوب بهـن تطيـف

وصب على التيل شبه السـيول منير الدجى من سناه الضـعيف

فموجنـــه ثـــم ضـــحاكنه وجارينـــه فـــى دعـــاب لطيـف

رأيتـــك خلابـــة للعقـــول فـــى متجلـــى ســـنى منيـف

منى ومعـان أبـى الحسـن أن ترى فى مثال التـراب الكثيـف

فخيلهـا البـدر روحـا بـدت على البعد فى حلة من شـفوف

تلوح وتخفى كأن الأشعة آنا مراء وآنـــــا ســـــجوف

فيلقـى شـعاه عليهـا نصـيفا وينزع آخـر عنهـا النصـيف

ويدر الشاعر ينوق بدر السماء حسنا وجمالا، وتماما وكمالا، ففـى قصيدته " بدرى وبدر السماء" يناجى حبيبته:

يـــا بـــدر ســـميت بـــدرا وأيـــن منـــك البـــدور

أيـــن الجمـــاد منيـــرا مـــن ذى حيـــاة ينيـــر

ويمضى الشاعر فى تلك القصيدة يقص علينا ساعة لقائه بحبيبتـه، وقد شاركته الطبيعة شعوره بهذا اللقاء، وعبرت عما فـى نفسـه ساعتئذ، فالروض زاه، والليل منير والنسيم قـد رقـت حواشـيه، والأزاهر قد فاح عبيرها بشذى العطر المريج، يقول مطران:

لـــم أنـــس حـــين ألتقينـــا والـــروض زاه نضـــير

إذ العيـــــون نيـــــام والليـــــل راء حســـــير

وفـــى الهـــواء حنـــين مـــن الهـــوى وزفيـــر
وللميـــــاه أنـــــين تـــذوب منـــه الصـــخور
وللنســـــيم حـــــديث علـــى المـــروج يـــدور
وللأزاهـــــر فكـــــر يرويـــة عنهـــا العبيـــر
والبـــدر فـــى الغـــيم يخفـــى آنـــا وآنـــا يثـــور
بـــيض الغيـــوم جـــوار لديـــه وهـــو أميـــر [١]

ولم يخل الليل من شعر مطران – وإن كان الليل مصـدرهم وفـزع وألم عند بعض الشعراء-كما رأينا فى شعرى أمرئ العيش والنابغة وسواهما – فإنه عند مطران ر ائق البهاء، بادى الجمال، مشـرق بضياء. ولنسمعه يصف ليلة من ليالى مصر يقول فيها:

وليـــة رائقـــة البهـــاء مشـــوبة الظـــلام بالضـــياء
أشـــبه بالجاريـــة الغـــراء فـــى حلـــة شـــفافة ســـوداء
بـــاد جمالهـــا علـــى الخفـــاء سكرى مـــن النســـيم والأنـــداء
جـــرت الفلـــك علـــى الـــدأماء خافقـــة الفـــؤاد بالرجـــاء
خفيفـــة كالظـــل فـــى الإســـراء تبدى افترارا فى ثغور المـــاء [٢]

أما عن الكونيات الأرضية، فقد تحدث عنها بإفاضة، وشعره فيهـا

---

(١)المصدر نفسه جـ٢ ص٣٢٨
(٢)الديوان جـ٢ ص٨٨، ص٨٩

كثير، وحديثه عنها غرير، وديوانه غاص بكثير من هذه النماذج.

وحسبى قصيدة جعل عنوانها "السلام" جمع فيها -تقريبا- كل مظاهر الطبيعة الكونية الأرضية من جبال وصحارى ورمال، ومنازل وغير ذلك، وفيها يقول:

هذى رؤوس القمم الشماء نواهضا بالقبة الزرقاء
نواصع العمائم البيضاء روائع المناطق الخضراء
يا حسن هذى الرملة الوعثاء وهذه الأودية الغناء
وهذه المنازل الحمراء راقية معارج العلاء
وهذه الخطوط فى البيداء كأنها أسرة العذراء
وذلك التدبيج فى الصحراء من كل رسم باهر للرائى
وهذه المياه فى الصفاء آنا وفى الإزباد والإرغاء
تناسب فى الروض على التواء خنية ظاهرة اللآلاه
ونسم قوتل للداء يشفين كل فاقد الشفاء
ومعشر كأنجم الجوزاء يلتمسون سترة المساء
فى ملعب للطيب والهواء ومرتع للنفس والأهواء
ومبعث الفكر والذكاء ومنتدى للشعر والغناء[1]

وهكذا أحاط مطران بالطبيعة الكونية من كل جوانبها، وصاغها

---

(١)الديوان جـ١ ص٤١ - ٤٢

شعرا يمتزج بطبيعته، ويعبر عما فى نفسه فى كل حالاتها فى تجربة صادقة، وعاطفة جياشة.

رابعا: الطيور

الطيور مظهر من مظاهر الطبيعة الحية صورها مطران فى شعره فى أدق صورها صورها فى حركتها الدائبة، وأصواتها الشجية، ونغماته الحالمة، وموسيقاها العذبة الرائعة.

والطيور معروفة فى اشعار الاقدمين، لكن مطران اختلف عن الأقدمين فى طريقة تناولهم لها، وإذا كان غالبية الأقدمين عدوها قاسية عنيفة، فقد كانت عند مطران رشيقة رقيقة.

ولشدة تعلقه بالطيور وحبه لها، نمنى أن يطير هو وحبيبته فى الهواء كما تفعل الطيور، ليحلقا فى أجواء الفضاء، ويهيما فى السحيق من فضاء هذا الكون الواسع الأرجاء. فيقول فى قصيدة أطلق عليها " صعدة منطاد" أثبتها له الاستاذ " إيليا حاوى" فى جزئه الثانى من كتابه " خليل مطران شاعر القطرين " إذا لم أجدها فى ديوانه فى أجزائه الثلاثة.

يقول فيها مطران:

وددت لو أن منطادا خفيفا تحملنا إلى أوج العلاء
وأطلقنا فرحنا فى عناق طوال الدهر فى عرض الفضاء
كفرخى طائر رفعا فطارا لأول مرة خلل الهواء

فعاما فى العميق من المهـاوى وعاما فى السحيق من الخـلاء
وذاقـا للهـوى سـكرا عجيبـا طلاه مـن الطلاقـة والضـياء
لدن شمس النهار تسـيل حبـا وتسقى الطير فى كأس السماء[1]

ويلقى قصيدة إلى شوقى حين عاد من منفاه بالأندلس فيقـول لـه: يتخير له من الطيور أعذبها صوتا وأجملها منظرا ؟ وأجليها للبهجة والسعادة فيقول له:

يا بلبل البلد الأمين ومؤنس الليل الحزين بمطرب الأصداء

ومن هنا جاءت أشعاره فى الطيور عذبـة لطيفـة عرفـت علـى موسيقى الشعر لحناً شجيا والمتتبع لشعر مطران يجد أنه لم يتناول فى شعره الطيور الجارحة فلم يتطرق إلى الصقر ولا إلى الرخم ولا إلى الغراب وما أشبهها من الطيور الجارحـة الداميـة ذات الأصـوات المزعجة لقسوتها وظلمها،وإنما تحدث عن الحمام والعصافير والكروان والبلابل وما شاكلها من الطيور الأليفة لهدوتها وجمال صوتها

وهذه طبيعة الرومانسية، ولذلك رأينا نفسه يطول فى أناشيد الطيور فجاءت قصائده الطوال كما فى قضصيدة " الحمامتان " و " العصفور " و "دعاء الكروان" و " من غريب إلـى عصـفورة مغتربـة" و " الشاعر الطائر " و " حنا الصغير" و سنرى من خلال عرضنا لهـذا المظهر من مظاهر الطبيعة وضوح الفارق بين اتجاه مطران وبـين

---

(١)خليل مطران شاعر القطرين إيليا حاوى ص٩٢

غيره من الشعراء الأقدمين.

ففى قصيدته " العصفور" يقص علينا قصة واقعية فى عبارات رقراقة واسلوب سلس يناسب أنسياب السلسبيل، فيحدثنا أنه بعد أن رجع هو ومحبوبته "ليلى" من رحلة لهما قضيا فيها وقتا طيبا.

فإذا عصيفير هوى من شرفة بيد القضاء
عار صغير واجف لم يبق فيه سوى الذماء
ظمآن يطلب ريه جوعان يلتمس الغذاء

ويهوى العصفور على ليلى يلتمس الدفء والرى والغذاء فتفرح به ليلى فرحاً شديدا وتبذل كل ما فى وسعها حرصا على حياته، يقول مطران:

ولشد ما سرت بهذا الضيف "ليلى" حين جاء
فرحت بطيب لقائه فرح المفارق باللقاء
واستنفذت لبقائه حيل الحريص على البقاء
تحنو عليه كأمه وتضمه ضم الإخاء

ويرى الشاعر من محبوبته هذا العطف والحنان على الطيور الوديعة فحييها على هذا العمل:

فحمدت منها برها بالبائسين الأشقياء
قالت: وهل لهو بعصفور جدير بالثناء؟

فأجبتهـــا: هـــى آيـــة لله فيـــك بـــلا مـــراء
يخفـــى الكـــريم مكانـــه فتـــراه أطيـــار السـماء[١]

وفى جنيف بسويسرا وقد اعتاد كل عام أن يرسل تحية إلى " جـان جاك روسو " وبالقرب من التمثال رأى طائرا على شجرة يشبه أن يكون مصريا فيحن إلى مصر وطبيعتها الساحرة وينشـئ قصـيدة جعل مدارها على عصفورة اشتبهت عليه أن تكون مجلوبـة مـن مصر للأتجار أو قاطعة من قواطع الأطيار،، ويجعل عنوان القصيدة قطعة من وجدانه " من غريب إلى عصفورة غريبة " يبدأها بمقدمة حزينة، ومشاركة وجدانية تعبر عما نفسيهما فى هذا المقام فيقول:

يـا مـن شـكت ألمـى معـى طيبتـه فـى مسـمعى
شـكواك ألطـف بلسـم لجراحـة المتوجـع
مـا أعلـق الشـدو الـرخيم بكـل قلـب مولـع
غنـى أهـازيج النـوى وعلـى نـواحى أوقعـى

بعدها ينادى العصفورة بأسلوب مفعم بالشوق والحنـين متسـائلا: لماذا ابتعدت عن مصر وطبيعتها ؟. أضاق بـك فضـاء وتنشـدين فضاء أوسع ؟. أم جلبت هاهنا للبيع والاتجار؟

بنـت "الكنانـة" مـا رمـى بـك بـين هـذى الأربـع؟
فـيم اغتربـت وكنـت فـى ذاك الأمـان الأمنـع؟

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٤٤

أحملت محمل سلعة جلبا بغير تطوع؟
ففرت من قفص الكفيل إلى الفضاء الأوسع
وبدك العود القريب لسربك المستمتع

ويتابع الحديث عن الطبيعة المصرية حيث المناخ المعتدل: فالسماء صافية والهواء عليل والخضرة والسواقى الحانيات على طيورها فيقول:

" مصر " السماء الصحو " مصر " الدفء، " مصر " المشبع

" مصر " التى ما ريع سا كنها بريح زعزع
حيث المراعى والندى للمرتوى والمرتعى
حيث السواقى الحانيات على الطيور الرضع
حيث الحرارة ماتوا ل ربيبها يترعرع

ويعود إلى سؤالها مرة أخرى، إنه فى صيرة فيسألها عن سبب مجيئها إلى سويسرا، فيا ترى هل هى ممن يحب الرحلات وكثرة الزيارات ؟ أم أن طبيعتها الهجرة من مكان إلى مكان؟ أو هى من الطيور التى تبحث عن المرتع الخصب فى أى مكان؟:

أم أنت من تلك الجوا لى فى الفصول الأربع
لا تعرفين من الزما ن سوى المكان الممرع
تثبين من متربع أبدا إلى متربع

بهدايـــة صـــحت علـــى طلـــب الأحـــب الأنفـــع
وثقـــوب فكـــر فـــى التوجـــه واختيـــار المنجـــع
وتطول القصيدة حتى تصل إلى ستة عشر ومائة بيت (١١٦ بيتـا) يتناول فيها وصف العصافير، وإن كان وصفا حسيا إلا أنه استطاع من وراء هذا الوصف إلى ما وراء هذا العالم حيث يصل إلى قـدرة الله التى لا تعجزها قدرة ليتجاوز بهذا الوصف إلى ما وراء الطبيعة إذ يقول:

آيـــات خلـــق مـــن يجـــل نظـــرا بهـــا يتخشـــع
أعظـــم بهـــا فـــى ذلـــك ال جســـم الصـــغير الأضـــرع

ثم لم يلبث أن يعاوده الحنين إلى مصر طالبا مـن العصـفورة أن تحمله على جناحها إلى أرض الكنانة فإن لم تستطع فلتشاركه لوعة الفراق، ولتكن صدى لرجع حنينه فيقول مخاطبا إياها:

أخـت الشـوادى الخضـر حـا نـت لفتـة المتنـوع
بـك نزعتـى نحـو الحمـى وعـدا كقيـدى فـانزعى
ألقـى الـوداع تاهبـا واسـتوفزى واسـتجمعى
لله وثبتـك البديعـة إذ وثبـت لتطلعـى
حيـث الضـحى متسـاكب كطـلا بكـف مشمشـع
والريح تحضن آخـر النغمـات حضـن المرضـع
والـدوح ميعـاد الـرؤو س مشـيع بـالأذرع

وتعطف الأفنان شبه تقصف فى أضلع
بهتاف لوعتى أهتفى وصدى حنينى رجعى
حتى يجيب، فأنصتى بضمير المتسمع[١]

وفى مشاركة وجدانية منه مع حمامة فقدت أليفها – يرمز بها إلى حبيبته – فأخذت ترسل الشدو أحزاناً فى ليل بهيم تروح فيه وتغدو باحثة عن حبيبها. تنتقل من فنن إلى فنن جادة فى البحث عنه حتى أصابها التعب والاعياء فأصبحت لا تقوى على الشدو والإنشاد فتمنت الموت لعدم الاهتداء إلى أليفها. يصور ذلك مطران فى قصيدته الحزينة الباكية "الحمامتان" فيقول وقد ملأ الحزن والأسى وجدانه:

راعت حشاى بنوح حمامة فى ارتياد
مرتاعة لأليف لم يأت فى الميعاد
ترن إرنان تكلى مفقودة الأولاد
والليل داج كثيف كأنه فى حداد
تروح فيه وتغدو كثيرة الترداد
ما بين غصن وغصن لها طواف افتقاد
ولم تنزل فى هيام وحيرة وجهاد
حتى استقرت عياء من وثبها المتمادى

---

(١)أنظر القصيدة فى الديوان جـ٢ ص٣٠٩: ٣١٧

منحلـــة العـــزم ليســـت تقـــوى علـــى الإنشـــاد
ظمـــأى إلـــى المـــوت ريـــا مـــن الأســـى والبعـــاد[١]

بينما أيفها هو الآخر يجوب الفاق ويرتاد كل مكان فى البحث عنها:

وكـــان يســـعى إليهـــا أليفهـــا غيـــر هـــادى
يرتـــاد كـــل مكـــان فـــى إثرهـــا وهـــو شـــادى

وما إن سمعت صوته حتى عاد الرجل إليها فسكن قلبها المرتاع، ولكن هيهات فما كادت تلحق به حتى حال بين لقائها العوادى:

حتـــى إذا ســـمعته بـــالقرب منهـــا ينـــادى
عـــاد الرجـــل إليهـــا لكـــن يغيـــر مفـــاد
إن الرجـــاء معـــين ومـــا الرجـــاء بغـــاد
همـــت تطيـــر إليـــه ولكـــن عـــدتها عـــوادى

فلم يكن هناك من وسيلة إلا أن تودعه بوداع ترك فى القلوب أسى وفى الأفئدة لوعة:

فودعتـــه بنـــوح مفتـــت الأكبـــاد

وقد عزفت على قيثارة اللحن الحزين لحنا موجعا يتسم بالبكاء والأنين، ويفيض بالشوق والحنين:

يـــا مـــن نـــأوا عـــن عيـــونى ورســـمهم فـــى الســـواد
وأجهـــدوا الفكـــر وثبـــا إلـــيهم فـــى الـــبلاد

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٣٤٩

واســـــتنفذوا زفراتـــــى وأومعـــــى ومـــــدادى
إلـــى مـــن أغـــدو حزينـــا فـــى غربـــة وانفـــراد؟
لـــى فـــى الحيـــاة مـــراد وأن أراكـــم مـــرادى
لا تجعلـــــوه وداعـــــى عنـــد الممـــات وزادى[١]

والشاعر يعنى بهذا الأسى نفسه إذ يغير عن حالته النفسية فى غربته بعيدا عن وطنه فى الوقت الذى ماتت فيه حبيبته التى ظل وفيا لها بارا طيلة عمره الذى بلغ خمسة وسبعين عاما. وهكذا تعلق قلب الشاعر بالطيور الوادعة الرشيقة، فكان شجيا بأصواتها واجدا فيه اللذة، وباعثا فيه النشوة، ومجددا عنده الفكرة على حد قوله عن صوت الكروان وهو يقرظ الدكتور طه حسين الشهيرة "دعاء الكروان".

يقول مطران:

دعـــاء هـــذا الكـــروان الـــذى خلدتـــه فـــى مســـمع الـــدهر
له صدى فى القلب والفكر مـن أشـهى متـاع القلـب والفكـر
لكنـــه مشـــج بترجيعـــه لمـــا جـــرى فـــى ذلـــك القفـــر
إذا تسكن البيـداء وهنـا فمـا ينـبض إلا مهـج السـفر

غير أن صاحب هذا الصوت الجميل الذى يطرب صوته الأسماع وتلذ به القلوب يخرج من مألوفه حيثما يرى جريمة نكراء وقعت

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٣٤٩ - ٣٥٠

فى ريف مصر فاهتز لها الضمير وارتاعت من أجلها القلوب. قلوب الطيور قبل قلوب البشر، أحسها الطائر فى الجو كما أحسها الشاعر فى الأرض فتوحد الحزن والأسى عندهما معا:

والطائر المرتاع فى جوه ينذر بالمأساة فى زعر
يرن إرنان سهام رمت حيث رمت بالشعل الحمر
أسأل دمعى خطب مطلولة مقتولة فى زهرة العمر
جنى عليها وأهم أنه يثأر العرض وللطهر
وخامرتنى حسرة خامرت شهود ذاك المصرع النكر
أليس للأرواح فى بثها أواصر من حيث لا تدرى
جوهرها فرد، وإحساسها مشترك فى النفع والضر[1]

ويذهب افتتان مطران بالطبيعة وطيورها حدا عظيما وصل به إلى أن يترجم قصيدة فرنسية للشاعر " جان قصيرى " بعنوان " حنا الصغير " يمزج بها بين الطفل والعصفور فى نشدان الحرية عند كل من الإنسان والطير، فكل منهما يحب الحرية ويسعى إليها، يقول مطران على لسان الشاعرة:

لى ابن عم بالغ أربعا من عمره أو دونها أشهرا
طلق المحيا شعره مذهب وثغره كنز حوى جوهرا
يختال كالجندى مستكبرا وما أحب الطفل مستكبرا

---

(١)ديوان الخليل جـ٢ ص٩٥ - ٩٦

قالت له المرضع يوما وقد أحسن سيرا: حق أن تؤجرا
هيا نزر جدتك الآن يا بنى، فالبس ثوبك الأفخرا
فراح مثل الظبى يعدو إلى غرفته جذالات مستبشرا
وكان فى إحدى الكوى طائر قد أودعوه قفصا مقفرا
رآه فيه صامتا موحشا كما يكون الحر مستأسرا
ففتح الباب له مسرعا وقال: أحسنت فخيرا ترى
أزاك مشتقا إلى جدة تزورها، فاذهب وعد مبكرا

وبعد: فقد أطال الشاعر فى هذا المظهر وبسط فيه القول أكثر إذا كان يجد فى الطيور الحرية التى ينشدها والتى هاجر من وطنه لبنان من أجلها فتمنى أن يكون مثل الطيور حين أحس الحرية فى انطلاقها وتغريدها وفرحها بالطبيعة فى غدوها ورواحها.

خامسا: الطبيعة الحيوانية:

وإذا رحنا نبحث عن الحيوان فى شعر مطران كمظهر من مظاهر الطبيعة عنده فإننا نجده فى الأعم الأغلب – وصفا حسيا كما كان يصفه الأقدمون قبله.

غير أنه قد يكون فى وصفه واقعيا وقد يكون رمزا. وعلى كل حال ففى وصفه للحيوان سواء كان حسيا أو معنويا فإنه يبرز المشاهد والاحداث فى مشهد وجدانى موضحا مشاعر وأحاسيس المشاهدين

إزاء هذا الحدث أو ذاك.

وأبرز ما يمثل هذا الجانب فى شعره قصيدته الرمزية التى عرض فيها ذئبا يصارعه شاب مبرزا بطولة وشجاعة الشاب الذى استطاع أن يصرع الذئب فيقول:

وذاك أن ذيبـــــــــــا مستضـــــخما مهيبـــــا
وخلفـــــــه هضـــــاب شـــــوامخ صـــــعاب
عينـــــــاه شـــــعلتان يـــــرنح الســـــكران
متـــــنقلا علـــــى مهـــــل كالظـــل فـــى ســـفح الجبـــل
وبينمـــــــا الجمهـــــور حيـــــران مســـــطير
إذ أنبـــــــرى شـــــجاع ترهبـــــه الســـــباع
وســـــار نحـــــو الـــــذيب بكبـــــر غريـــــب
والـــــروع فـــــى تعـــــاظم والخطـــــب فـــــى تفـــــاقم
حتـــــى إذا مـــــا اقتربـــــا منـــــه عـــــوى واضـــــطربا
ونبـــــــه الأصـــــــداء فـــــــامتلأت عـــــــواء
والشـــــمس فـــــى شـــــحوب هنيهـــــة الغـــــروب

وقد استطاع مطران فى تصوير بارع أن يبرز المشاهد والمواقف فى مشهد وجدانى موضحا مشاعر وأحاسيس فى تصوير أدبى رفيع عقول

والنـــاس فـــى تخـــوف مـــن هـــول ذاك الموقـــف
يـــرون نحـــو الجبـــل ظلـــين فـــى تنقـــل
حينـــا علـــى تلاقـــى ثـــم علـــى افتـــراق
وبينمـــا هـــم فـــى هلـــع إذ ســـمعوا صـــوت صـــدع
فصـــك فـــى الآذان كطرقـــة الســـندان
ثـــم عـــواء مزعجـــا مطـــردا مرجرجـــا
ثـــم عـــواء أضـــعف مقطعـــا مخطفـــا
وأبصـــروا الـــذئب جـــرى إلـــى بعيـــد مـــدبر
ثـــم ســـجى ثـــم التـــوى وســـار شـــوطا وهـــوى

وعلى أية حال فإن مطران كان مقلا فى هذا الجانب جدا، وأن ذكره للحيوان كان يجئ إما ليستكمل به صورة أو يستجلى به منظـرا أو يتمم به فكرة كما فى بيتين له فى قصـيدة "لبنـان"، جـاء بهمـا ليستكمل جوانب الطبيعة وحسنها فى لبنان وهذان البيتان هما:

والسئمات أقرهـا فـى نعمـة أخـذ الرعـاة لا مـن الأسـاد

طلع الخزامى والثمام نشيطة محمودة الإصدار والإيراد

أتى بهما بعد أن أوقفنا على مظاهر الطبيعة فى لبنان ودعانا إلى التأمل فى قدرة الله التى صنعت تلك الطبيعة الساحرة وقال:

أوقفت تعجب من صنيع الله فى لبنان بين شوامخ ووهاد؟

أرأيت أشتات المدارج والقرى متنوعات الحلى والأبراد؟

وزكوالح الأصلاد ثم نباتها خلسا عن التحنان فى الأصلاد؟

وأرى أن " مطران " رأى أن الحيوانات بجميع فضائلها غير جديرة بأن يبثها شكواه وليست فى مستوى شكواه أن تشاركه الوجدان فأعرض عنها ونأى بها.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعره فى الطبيعة

مدخل:

أعنى بالخصائص السمات الفنية التى تميز بها شعر الطبيعة عند مطران والمتمثلة فى أختياره:

١-الألفاظ والأساليب

٢-المعانى والفكار

٣-الخيال والصور

٤-الموسيقى

٥-الموضوعية

من حيث أن مجموع هذه الخصائص أو السمات لابد من توافرها مجتمعة فى القصيدة الشعرية، بحيث لا تنفصل أية خاصة عن أختها، إذا لا يمكن أن تجئ الالفاظ دون أن تحمل فى طياتها معنى. إذ الالفاظ قوالب المعانى، كما لا تستساغ الالفاظ مفرده، بل لابد من صوغها وترابطها وتناسقها وتناسبها بحيث تشكل الاسلوب الذى يحمل بين طياته المعنى ويبرز من خلال نسقه الجميل الصورة الفنية المنشودة للقصيدة العربية وهكذا.

وإذا كان الشعر خلجات تتردد فى نفس الشاعر من حيث إنه فيض

الشعور والوجدان نتيجة اهتزاز أوتار النفس البشرية أمام الحياة الكامنة فى الاشياء، وهو ما يعبر عنه بالتجربة الشعورية، فإن الشاعر يستعير الاوزان والقوافى يستعين بها ليؤلف وحدة موسيقية يتمكن أن يصب فيها الخلجات التى تتردد فى وجدانه، كما أنه لابد من الاستعانة بالالفاظ ليعبر بها عن تلك الخلجات.

والشاعر حين يصب خلجاته فى الالفاظ فإنها تتصاعد فتكون وحدة لا يمكن أن تفضل فيها الالفاظ عن الشعور. والشاعر فى ذلك كالموسيقى. فكما أنه لا يوجد فى الموسبقى أنغام فى جانب، ومعان يعبر عنها بهذه الانغام فى جانب آخر – بل يوجد هناك فقط صوت تعبيرى. كذلك فى الشعر، لا توجد ألفاظ وحدها ومعان وحدها، وإنما ألفاظ تعبيرية عما فى وجدان الشاعر هى مظهر الشاعرية والشعر نفسه. (١)

وقد كانت من أولى مهام مطران، الاهتمام بلغته وتجويدها، ومعرفة مفرداتها تمام المعرفة ومن ثم تمكن من لغته واصبح خبيرا باسرارها وصارت الأداه الأولى التى تستطيع أن يعبر عنها عما يجول بفكره ويخالج نفسه.

وبذا استطاع أن يبتكر ويفنن ويستغل حسه وشعوره ليخلق معانى سامية نبيلة واضحة ذاتية، ومشاعر دقيقة شخصية، لا أثر فيها

---

(١)أنظر خليل مطران لأسماعيل أدهم فى شعراء معاصرون جـ٢ ص١٦٩ تحرير وتقديم دار إبراهيم الهوارى طبع دار المعارف سنة ١٩٨٤

للتعمل والمخالصة، وآثارا مطبوعة بطابعه، فيها ذوب نفسه وروحه وفكره، مع قوة الديباجة الفصيحة، وروعة البيان العربي، وبهذا وحده حاك العرب ببقاء الأصل السليم، وجار الغريبين في اتجاهاتهم من غير أن يغير على آثارهم ويدعيها لنفسه، أو أن ينقل ويترجم ويقلد بصورة باهتة مكشوفة فيها ألوان صارخة مفضوحة فيأتي مهلهلا لا شخصية فيه، ولا ذاتية له[١]

وقد تأخت هذه الخصائص عند مطران وتألفت ورافقت جميع الفنون التي عالجها خاصة في شعره الذي تناول فيه وصف الطبيعة ومظاهرها التي يسبق أن استظهرناها من شعره.

وقد بدا لى أن الطبيعة لم تخل من غرض من أغراض شعره: فقلما تخلو قصيدة من قصائده من قاموس الطبيعة اللغوى الذى أولع به وسيطر على مشاعره وأحاسيسه. ومن ثمة فإن مظاهر الطبيعة من أبرز المعالم فى شعره حيث برع فى تناولها براعة تشهد له بالاصالة في حرارة المشاعر، والعمق في ابتداع المعانى، وتسلسل الأفكار، والتأنق في اختيار الالفاظ، والاجادة في روعة التصوير وابتكار الخيال، وسلاسة الاسلوب وجمال الصياغة واختيار الوزن وحسن الايقاع الموسيقى وعذوبة الالحان، وقد أشاد بنبوغه في التفنن فى هذه الجوانب كل من ترجموا وتحدثوا عنه من الباحثين

---

(١)أنظر خليل مطران شاعر الاقطار العربية.د/ فوزى عطوى ص٣٤

والنقاد[١]، فالجميع أشادوا بفنه.

وبين يدى ديوان شعره بأجزائه الثلاثة، وما عثرت عليه مما نقله عن الباحثون والكتاب الذين كتبوا عنه ينطق بولوعه بالطبيعة وغرامه بها وحبه لها، ومزجه بين مظاهرها ومشاهدها وبين أهداف حياته، ونبضات قلبه، وأنغام وجدانه، وخلجان نفسه، ولقد وجدت أنه لازم قاموس الطبيعة فى أغراض شعره كلها – تقريبا- والتزمه فى إبداع صوره، وإيحاءات ألفاظه، وإشراقه معانيه إشرافة الصبح وتفتح الزهر، وابتسامة الورود، ونضارة الغصون، وسحر سريان الماء، فى عبارات سهلة المأخذ، قوية التأثير، كقوة الطبيعة التى امتزجت بلحمه ودمه، وروحه وخياله وفكره.

وقد لاحظت أن لمطران أهدافها نفسية كامنة وراء تعلقه بالطبيعة جعلته لا يعنى بها لمجرد الوصف، إنما قصدها من أجل أن تكون ترجمة لعواطفه ومشاعره، فكانت لسان منطقه فى الإعراب عن فكره ووجدانه فى معظم أغراض شعره، ولهذا كان مطران يعاود النظر فى شعره، خاصة فيما يتعلق بالطبيعة طلبا للتناسب بين التعبير والمادة التى يحتويها التعبير حتى يكون شعره فى هذا الجانب ترجمة حقيقية عما فى نفسه.

---

(١)أنظر: شوقى ضيف فى الأدب العربى فى مصر، وإيليا حاوى فى خليل مطران شاعر القطرين، طه حسين فى حافظ وشوقى، وفوزى عطوى فى خليل مطران شاعر الاقطار العربية

ومن هنا كان التنقيح وسيلة يعمد إليها دائما للوصول إلى الصورة التعبيرية التى تعكس تماما ما فى نفسه.

يقول د/ إسماعيل أدهم[١] فى هذا الصدد " وأول ما يستوقف النظر، ظاهرة التناسب أو ما يسميه البعض الاتزان بين شكل التعبير والمادة التى يحتويها التعبير، وهذا التناسب يرجع إلى أن الحياة تفيض من وجدان مطران، متخذة كساءها التعبيرى الذى تظهر رافلة فيه تماما على حد قدها. وهذا يرجع إلى ما فى شعر مطران من صناعة فنية تلين اللغة تعابيرها لما يجيش فى نفسه من خواطر ويجتاح قلبه من خلجات ويستولى على مخيلته من صور.

وإسماعيل أدهم يرى أن شعر الخليل يتزن فيه وتتناسب الشاعرية

---

(١)ولد إسماعيل أدهم فى ١٧ فبراير سنة ١٩١١م بمدينة الاسكندرية من أب تركى وأم ألمانية فوالده أحمد بك أدهم كان من أمراء اللواء فى الجيش التركى سابقا ووالدته السيدة ايلين فانتهوف كريمة البروفسور فانتهوف الشهيد عضو أكاديمية العلوم البروسية.

وقد تلقى أدهم دراساته الأولى فى مصر، والقانونية بين مصر وتركيا ولعالين فى روسيا وكان أول البكالوريا التركية فقد تخرج من كلية العلوم التركية عام ١٩٣١م حائزا درجة بكالوريوس علوم، وهو فى العشرين من عمره فأوفدته الحكومة التركية إلى روسيا للتخصص فى بعثة تبادل الثقافة والصلات بين الدولتين، ولم يلبث سنة وبعض السنة حتى نال الدبلوم العالى من معهد الطبيعات الروسية عام ١٩٣٢م وتقدم لنيل الدكتوراه من جامعة موسكو فظفر بها سنة ١٩٣٣م بتوفق. وقد مات غرقا فى البحر الابيض مساء يوم الثلاثاء ٢٣ يوليو سنة ١٩٤٠م.

الصافية مع الصناعة الفنية، فهو يحذو حذو مدرسة شعراء الصنعة الفنية التى إمامها " زهير بن أبى سلمى"

ومن أنجب تلاميذها الحطيئة وأبو تمام ومسلم بن الوليد وعبد الله بن المعتز وثمة صلة -فيما يرى إسماعيل أدهم - بين أبى تمام وخليل مطران فى صنعتهما الفنية غير أن مطران يفترق عن أبى تمام فى أن صناعته فنية قائمة على أساس التناسب بين الفكرة والعبارة، ومن هنا كانت صناعته خاضعة لمعانيه المبتكرة وأخيلته وأحاسيسه، ويقابل ذلك أن صاحبه أفسدت عليه قوة صناعة شاعريته فى كثير من المواضع، وجرى وراء الصنعة وكأنها مقصود لذاتها، ومن هنا كان تعلقه بالبديع وتكلفه الطباق والجناس والاستعارة والتقسيم حتى ذهب ذلك بالكثير من روعة شعره وجلاله، وهنا موضع الافتراق بين مطران و "أبو تمام" فمطران مع عنايته بالصنعة إلا أن الصنعة عنده غير مطلوبة لذاتها، وإنما لتكون وسيلة لبسط المعنى وإبراز الفكرة فى صورة تتفق مع جلال المعنى وروعة الفكر، أما أبو تمام فعنايته بالصناعة انقلبت إلى أن طلب الصنعة لذاتها ــ ونسى أنها وسيلة لما تحمل وراءها من معنى وفكرة.

وهكذا انقلبت الصناعة على الشاعرية عند أبى تمام بينما هما تناسبتا وتوازنتا عند "مطران"

فإسماعيل أدهم يرى أن مطران من شعراء الصنعة الفنية فى الأدب

العربى فتراه ينظم القصيدة، ثم يعيد النظر فى أعطافها يطلب فصاحة الكلم وجزالة اللفظ وبسط المعنى وإبراز الفكرة وإتقان البنية وإحكام القافية وتلاحم الكلام بعضه ببعض.

ومن هنا جاء الجهد المبذول فى صياغة شعره، والصناعة تظهر فى تهذيبه وتعابيره الشعرية وصقل الفاظه بحذف غريبها أو متنافرها وحرصه على انسجام موسيقاه الشعرية، وتحريه مساواتها وجرية وراء التناسب بين الفقرات والجمل، ومن هنا جاءت جزالة شعره وحسن سبكه وخلوه من الفضول اللفظى.

ومطران صادق مع نفسه مخلص لموهبته ملتزم بمفهوم الشعر ألمح إلى جانب من هذا المفهوم فى مقدمته لديوانه " هذا شعر ليس ناظمه بعبده، ولا تحمله ضرورات الوزن والقافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام بل ينظر إلى جمال البيت فى ذاته وموضعه، وإلى جمال القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها، وفى تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة ذلك للحقيقة وشفوفة عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه على قدر[١]

ولهذا تنوعت الخصائص الفنية عند خليل مطران إلى الموضوعات التى ذكرتها فى مستهل حديثى عن هذا الفصل. وسأفصل القول فيها

---

(١)شعراء معاصرون ص٤٢٣

على النحو التالى:

١-الألفاظ والأساليب:

إن حب مطران للطبيعة وشغفه بها جعله يتأنق فى اختيار الألفاظ بحيث تأتى معبرة عن المعنى الذى يهدف إليه من أقرب طريق أو بمعنى آخر بحيث وظف الألفاظ لخدمة الافكار فى تناسق وترابط وانسجام.

كما أنه لم يتقيد بالتعبيرات القديمة الموغلة فى الغرابة والتى تجعل القارئ يلجأ للبحث عنها فى معاجم اللغة، فضلا عن أنه كان يؤثر من الألفاظ ما كان ذا موسيقى خاصة به.

وكثيرا ما استعمل تعبيرات ذات ايحاءات خاصة. ومع سهولة ألفاظه وليونتها فإنه لم يهبط بها إلى السمج أو العامى منها، بل سلك بها طريقا ذا مجالات مبتكرة حفظت للغة العربية روعتها عن طريق المجازات والخيالات البيئية التى وجدها أمام ناظرية فى الطبيعة فجاء أسلوبه سلساً "يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح"

على حد تعبيره -معتمدا فيه على تراسل الحواس، بمعنى أن توصف مدركات كل حاسة من الحواس بصفات مدركات الحاسة الأخرى، فتوصف المرئيات بأوصاف المسموعات، أو المشمومات، أو توصف معطيات السمع بما توصف به معطيات البصر، أو اللمس، أو الذوق، ومن ثم تخلق علاقات جديدة بين مفردات اللغة لم تكن لها من قبل، فتقرأ أمثال هذه التعبيرات: الضوء الناعم،

والضوء الباكى، والعطر الأسرى، واللون الدافئ، والسكون المقمر، والاسماك الفضية، والقمر الشرس، والشمس المرة المذاق. (١)

ومبنى هذا التراسل بين الحواس على أن "اللغة فى أصلها رموز اصطلح عليها لتثير فى النفس معانى، وعواطف خاصة، والالوان والأصوات والعطور تنبعث من مجال وجدانى واحد، فنقل صفاتها إلى بعض يساعد على نقل الأثر النفسى كما هو،أو قريب مما هو(٢)

وبذا تكتمل أداة التعبير بوصولها إلى نقل الأحاسيس الدقيقة.

وللنظر إلى قصيدته " بدر وبدر " والتى يقول فيها:

لم أنس حين التقينا والروض زاه نضير
إذ العيون نيام والليل راء حسير
نشكو الغرام دعايا ورب شاك شكور(٣)

فقد استعمل فى البيت الاول:

الروض منظورا بالبصر، والأصل أن يكون مشموا كما جعل الليل فى البيت الثانى: آياته مبصرة، والأصل أن آياته ممحوة وفى البيت الأخير جعل من المشموم حديثا ناتجا عن فكر فجعل صفة الحديث فى موضع الشم. على طريقة الكنايات والمجازات توسعا فى اللغة

---

(١)أنظر الأدب المقارن د. غنيمى هلال ص٤٠١ ط الثالثة مطابع الشعب القاهرة سنة ١٩٦٤

(٢)المرجع نفسه ص٤٢٠

(٣)الديوان جـ٢ ص٨٩

وخروجا بها من دروبها القديمة إلى حيث تحلق فى آفاق الحداثة:

وقد تنوع أسلوبه بين الرمز والتلميح وبين الوضوح والتصريح، كما فى قصيدته "الأهرام" التى يرمز بها إلى الثورة على الاستعمار مهيبا بالشعب أن ينهض من كبوته وأن يفيق من غفوته مذكرا بماضيه المجيد وغابره التليد متمثلا فى ملوك الفراعنة الذين أشادوا المجد التالد فنراه يقول:

إنى أرى عدا الرمال هاهنا خلائقا تكثر أن تعددا
صفر الوجوه ناديا جياههم كالكلا اليابس يطوه الندى
محنية ظهورهم، خرس الخطى كالنمل دب مستكينا مخلدا
مجتمعين أبحرا، متفرعين أنهرا، منحدرين صعدا
أكل هذى النفس الهلكى غدا تبنى لفنان جدثا مخلدا[1]

ثم لا يلبث أن يصرح ويجهر فيقول:

يا أيها الموتى ألم يسمعكم صوت المنادى صادعاً مرددا؟
قوموا انظروا السوقة فيما حولكم تدوس هامات الملوك همدا
قوموا انظروا العدو فى دياركم يحكم فيها مستبدا أيدا
قوموا انظروا أجسادكم معروضة فى مشهد لمن يروم المشهدا

وقد يدفعه حرصه الشغوف لاستظهار جمال الطبيعة على استجلاب تعبيرات لم تكن مألوفة فى الاستعمال اللغوى كقوله "يفتضى أزرار

---

(١)ديوان الخليل جـ٢ ص٤٦٠

السماء" و "يرفع ثوب الليل" من بيتين فى قصيدة " الحنين الشهيد" يقول فيهما:

وكان يهم الصبح أن يتطلعا ويفتضى أزرار السماء ليسطعا
ويرفع ثوب الليل عنه ليخلعا فلم يطو منه الذل إلا وقد وعى
دماً طاهرا أجراه إثم فتى نذل(١)

فاستعمال "ويفتضى أزرار السماء" – ويرفع ثوب الليل " كناية عن قرب انقشاع الظلام وانبلاج نور الصباح فاستخدام هذه العبارات لم تعهده العربية فى مثل هذا المعنى.

وقد أفصح عن ذلك حيث قال فى مقدمة ديوانه عن شعره:" فشرعت أنظمة لترضية نفسى حين أتخلى. متابعا عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه، ومراعاة الوجدان على مشتهاه موافقا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الالفاظ والتراكيب لا أخشى استخدامها أحيانا على غير المألوف من الاستعارات، والمطروق من الاساليب وذلك مع الاحتفاظ بأصول اللغة وعدم التفريط فى شئ منها. (٢)

كذلك وجدته يكثر من استخدام الالفاظ المرتبطة بالطبيعة، والجو الروحى خاصة عندما يشتد به الوجد ويعاوده الحنين ويستبد به الشوق إلى حبه الذى افتقده، فنراه يكثر من ألفاظ الربيع، الربوع، الروض، الزهر، النبات، الشوك، الاغصان، الأرض، السماء، كما

---

(١)أنظر ديوان الخليل ص"٣" جـ٤٢٧

(٢)مقدمة الديوان ص"٩"

فى قصيدته "دمعة على فقيدة" والتى فيها يقول:

عـــاد الربيـــع وحبـــذا عـــود الربيـــع إلـــى الربـــوع
عـــود تســـربه الخـــلا ثـــق وهـــو عيـــد للجميـــع
بســـطت ســـنابلها الريـــا ض وأورقـــت فيهـــا الفـــروع
وأزنييـــــت أثوابهـــــا بزخـــارف الوشـــى البـــديع[١]

وكما فى قصيدة " أدم وحواء":

حملـت مظـلات لنـا الشـجر وأعـد مختبـأ لنـا الخمـر
ودعا النسـيم العاشـقين إلـى روض يقـر بحسـنه النظـر
فيه العمـاد الخضـر ينظمهـا فـن بـديع الـوحى مبتكـر
بإزائهـــا عمـــد مذهبـــه من حيث نور الشـمس ينحـدر
متناسـق مـا بينهـا حجـرا نعم السـياج ونعمـت الحجـر
تجـرى ســواقيه فعابســه فيها الظلال ويضـحك الحجـر
وكأنمـــا نســـماته كلـــم وكأنمـــا نفحاتـــه فكـــر
وكـأن "هنـدا" فـى تخطرهـا سـلطانه رفعـت لهـا سـرر
حـواء هـذى جنـة أنـف أنـا آدم فيهـا وذا الثمـر
فرنت إلى غصـن بـه علقـت تفاحـة يشـتاقها البصـر
قالـت: إلا أرقـى فأقطفهـا فأجبـت إن العبـد يـأتمر[٢]

---

(١)خليل مطران شاعر القطرين، إيليا حاوى جـ٢ ص١١٣

(٢)المصدر نفسه جـ٢ ص٩٧ - ٩٨

ففيها من ألفاظ الطبيعة -كما رأينا- لشجر، الظلال، النسيم، الشمس، النور، السواقى، الثمار، الاغصان...الخ وكلها ألفاظ متصلة بالطبيعة فى الوقت الذى تتعانق فيه مع حالته النفسية، وكما فى قصيدته "المساء" حيث ازدحمت القصيدة بألفاظ الطبيعة(١)

وغير هذه القصائد كثير، فيها حشد هائل من ألفاظ الطبيعة أتت طيعة تنطوى على الجرس الموسيقى واللحن الشجن والرشاقة البعيدة عن الصخب والوعورة اللذين يتنافيان مع لغة الشعر سمة الشاعر فى الطبيعة مما لا يتسع المقام لذكرها.

٢-المعانى والأفكار:

كما عنى الشاعر بالقصيدة فى تركيبها من حيث الاهتمام باللفظ والأسلوب - كما وضحت - عنى كذلك بالمعانى وترتيبها فى تناسق وتناسب فجاءت معانيه صافية وأفكاره رائقة فى تسلسل وترتيب، ووضح لا لبس فيه غموض، وضوح الطبيعة فى صفائها وجالها.

وقد استمد مطران معانيه وأفكاره من الطبيعة الجامدة التى تتجلى للشاعر على اعتار أنها قلب نابض وحياة تتدفق فى أعطاف الكائنات

وبتتبعى ديوانه للبحث عن المعانى والأفكار التى تناولها شعره فى الطبيعة وجدتها تدور حول المعانى الآتية:

---

(١)أرجع للقصيدة فى الديوان جـ١ ص١٧: ١٩

أ-الحب العفيف:

فقد هام بالمرأة روحا ووجداناً فى حب عذرى عفيف، واستعذب كل شئ من أجل هذا الحب، وقد مر بنا أنه تعلق بفتاة فى سن مبكرة وأخلص لها فى حبه كما أخلصت له، غير أن القدر لم يدعه ينعم بحبه إذ مرضت الفتاة وماتت لكن حبه لها لم يمت إذ ملك عليه شغاف قلبه، وظل وفيا لحبه يتذكرها بين الفينة والفينة وفيذوب قلبه أسى ويتملكه الحزن، ويستبد به الوجد والألم، ولم يجد الشاعر إلا الطبيعة تواسيه فهرب إليها ولاذ بها وذاب فيها يتأمل قوة الحياة فيها، وليلقى إليها بهموم الحياة التى يحياها ليجد فى حفتها الراحة، فلجأ إلى الزهرة، النبات، السحب، النجوم، البحر، النهر، الطيور، وغيرها من مظاهر الطبيعة يناجيها.

ولذا وجدناه يشرك الطبيعة معه حين يبكى فقيدته كلما حلت الذكرى وجاشت فى خاطره الذكريات فتراه يقول فى قصيدة له بعنوان "وردة ماتت ":-

أبكت الروض عليها جزعا وردة فى عنفوان العمر حانت
ليست زينتها عارية لشباب ثم ردت ما استدانت
لقيتها الأرض تكريما لها بين جفنين فغرت حيث هانت
وأبنتت من صدرها قبرا لها جثت الحسنى عليه واستكانت
ذيل الريحان حزنا وبدت سنة فى أعين النرجس رانت

ثم يلتفت إلى الفراشات يسألها فى وجد حزين يراها هى الأخرى حزينة قائلا:

يا فراشات هنا حائرة كلما مرت على القبر تحانت
ما الذى يتغين من جوبك يا شبهات الطير؟ قالت وأبانت

وتجيبه الفراشات مفصحة عن أحزانها لفقد عزيزته فتقول فى وجد وألم:

"نحن-آمال الصبا-كانت لنا هاهنا محبوبة عاشت وعانت
كانت الوروة فى جنتنا ملكت بالحق، والجنة دانت
ما بثنا أن رأيناها وقد هيطت عن ذلك العرش وبانت
فترانا نتحرى أبدا إنرها أو نتلاقى حيث كانت[1]

وكثيرا ما كان يطلب من محبوبته -قبل رحيلها-أن تتأمل الطبيعة وقد عكست على مرآتها خواطره ففى حديث له عن محبوبته يقول لها:

"سلمى" انظرى الروضة الغناء سكانة على نعيم وقلبى ذاكيا قلقا
من علم الزهر أن يفتر لى كذبا وباكى السحب أن يندى وما صدقا؟
ونائح الطير إيلامى بمنطقة كأنه شارح حالى بما نطقا؟
ومائس الغصن إغرائى بعطفته فإن دنوت تسامى نافرا فرقا؟
فليتنى مت لاعينى إليك رنت ولا فؤادى كما شاء الهوى خفقا
قالت وقد سال دمع من محاجرها أسى على ودمعى بالسرور رقا

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٢٦٠

وكاشفتنى بما تخفى ضمائرها وهكذا الزهر إن نديته عبقا:

فدتك نفسى مشغوفا شغفت به فمر مطاعا ولا رأى لمن عشقا

فلم أجب،أوعدت فى الروض نافحة مالت بغصنين بعد الصد فاعتنقا(١)

وحين يشتد به الألم وتبلغ به حرقة الجوى إلى أبعد مدى يضيق بالحياة فيعكس ما فى نفسه على مظاهر الطبيعة كالذى رأيناه فى قصيدته "المساء" وقد ذكر صاحبته التى ألهبت فؤاده وألقت به فى لجنة الحزن العميق فيصاب بداءين داء الحب وداء المرض ولم يجد إلا الطبيعة يرى خواطره فيها أمام عينيه كدامية السحاب، ويسيل الدمع من جفنه مشعشعا وممزوجا بسنا الشعاع الغارب. وتتراءى الشمس وهى آفلة، كأنها آخر دمعة للكون تمتزج بدموعه لرثائه، وكأن هذا المساء مساء حياته.

والقصيدة من عيون شعره فى الطبيعة فى هذا الجانب

يقول بعد أن شكا إلى البحر همومه وأحزانه ورأى البحر به من الهموم مثل ما به:

داء ألم فخلت فيه شفائى من صبوتى فتضاعفت برحائى

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء

وخواطرى تبدو تجاه نواظرى كلمى كدامية السحاب إزائى

والشمس فى شنق يسيل نضاره فوق العقيق على ذرى سوداء

---

(١)خليل مطران شاعر القطرين جـ٢ ص١٠٣: ١٠٥

مرت خـــلال غمـــامتين تحـــدرا وتقطـــرت كالدمعـــة الحمـــراء
فكأن آخـــر دمعـــة للكـــون قـــد مزجت بـــآخر أدمعـــى لرثـــائى
وكأننى آنســـت يمـــوى زائـــلا فرأيت فى المرآة كيف مسائى[١]

وفى مشاركة الطبيعة له فى رومانسية متألمة يهرع إلى النجم يبوح له بما يعانيه فإذا النجم على شاكلته فى وفرة المشـــاعر، ووحـــدة المصير إلى جانب تسلسل وحدة المعاناة بينهمـــا يعقـــد مشـــاركة وجدانية بينه وبين النجم فيقول:

أرى مثل سهدى فـــى الكوكـــب أحل به مثـــل مـــا حـــل بـــى؟
يهـــم هيـــامى مـــن وجـــده ويهـــرب مـــن مهـــده مهربـــى
وتجتاز هـــذا الفضـــاء رحيبـــا فأمـــا بنـــا فهـــو لـــم يرحـــب
إذا ســـرت بحـــراً أراه بـــه انيســـى عـــن جانـــب المركـــب
وإن سرت برا يجـــارى خطـــاى ففى الشرق أنا وفـــى المغـــرب
رفيق السرى فيك جمـــر يـــذيب وإن ســـال كالـــدمع الســـيب
أســـر هـــواك إلـــى صـــاحب يؤاخيك فى همـــك المنصـــب[٢]

وهكذا نراه يفجر الحسرات والزفرات والانات من قلب الطبيعـــة إذا هاجت به الذكريات واستبد به الشوق إلى محبوبته.

---

(١)الديوان جـــ١ ص١٩

(٢)ديوان الخليل جـــ١ ص١٣١ - ١٣٢

ب-الحنين إلى الوطن:

والحنين إلى الوطن غريزة فى قلوب الاحرار ومعنى إلى المعانى السامية التى يتغنى بها كل مواطن حر غيور.

وإذا كان الشعراء قديما صاغوا هذا المعنى شعرا ينبض بالشوق والحنين إلى أوطانهم من أمثال ابن الرومى فى العصر العباسى، ورفاعة الطهطاوى والبارودى وشوقى وغيرهم من شعراء العصر الحديث فإن مطران بدوره لم ينس وطنه "لبنان" مسقط رأسه ومرتع صباه وموطن ذكرياته ولذلك ظلت نفسه عالقة بلبنان وطبيعتها الجميلة الساحرة وهو الرومانسى الذى تعلق بالطبيعة وجاءت معظم أشعاره عن لبنان وطبيعتها من ذلك ما يقوله فى حفلة أقيمت فى النادى الشرقى بالقاهرة وشهدتها الجالية اللبنانية والسورية يقول فيها:

تلك الديار أتذكرون جمالها بين السهول الخضر والأطوار؟
"لبنانها" و"دمشقها" و"بقاعها" وضياعها والبحر طى فؤادى[1]

ويقول فى " بعلبك" وطبيعتها الساحرة:

كم وقفة فى "بعلبك" وقفتها أرمى الجهات بناظر رواد
بينا أعيد الطرف عنها راويا عجبا وإعجابا إذا هو صاد
أرنو ومر بأتى بقايا هيكل من أعجب الآثار والأبلاد

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٣٣٨

الروضة الخضراء تحت مظلة من ناصع النور فى الاعوار والسهل يبسط للنواظر بعدها طرفا روائعها بلا تعداد لطف التناسق بينها حتى أنتف ما بينها من شاسع الأبعاد[١] وهكذا احتوى شعر مطران على كثير من معانى الوجد والحزن والالم واهتم بابراز هذا الجانب فى شعره وربما وجد فى حزنه متعة أو لذة لأعتقاده كسائر الرومانسيين أن الحزن والالم يسموان بالروح.

ومن هنا رأيناه كثيرا ما يقضى بآلامه وأحزانه إلى الجمادات والكائنات الحية من خلال الطبيعة كالذى رأيناه فى قصيدته "المساء" وهو يشكو إلى البحر آلامه ويلقى إليه بهمومه وأحزانه متمنيا أن يكون له قلب قادر على تحمل الهموم الثقيلة والاحزان التى ناءت بكلكله كالصخرة التى يقيم عليها وهنا تتجلى المزاوجة والاندماجية مع الطبيعة فى الحب والالم فلم يتخل عما طبع عليه من مزج تجاربة النفسية بما امتلأت به مخيلته من مظاهر الطبيعة وقد جاءت معانية فى هذا الجانب متوالدة متداعية مرتبة الافكار قريبة إلى الافهام معبرة أتم تعبير عما تهدف إليه.

٣-الخيال والصور الفنية:

مدخل:

---

(١)المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٠

الصورة الادبية ترتبط بالحياة إذ الأدب صورة الحياة ومرآة عاكسة لما يحدث فيها. والأديب الماهر الحاذق هو الذى يستقى أدبه من حياة مجتمعه الذى يعيش فيه. ومن مشاهدة البيئة التى يعيش فيها.

وهذه الصورة تتكون من جزئيات كثيرة من التعبيرات المجازية والحقيقية يستعين بها الأديب على رسم صورة كلية متكاملة الجوانب تعبر عما يجيش فى صدره من عواطف وأفكار. والصورة الأدبية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمعانى اللغوية للألفاظ وجرسها الموسيقى ومعانيها المجازية، وحسن تأليفها معا. ومن ثم فإنها ترجع إلى عنصرين هما: العبارة، والخيال على أنه مما يجب التنبيه إليه أنه لا يلزم تكون الالفاظ والعبارات فى الصورة الأوربية مجازية، فقد تكون العبارة حقيقة الاستعمال، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير بايحاءات الفاظها وموسيقاها، وإيقاعاتها، وغيرها مما تكونه الالفاظ حين يرتبط بعضها ببعض.

ولما كانت الصورة الشعرية مرجعها إلى عنصرى العبارة والخيال، وقد سبق أن تحدثت عن العبارة مفردة ومركبة عند الحديث عن الالفاظ والاساليب يبقى لنا أن نتكلم عن الخيال ودوره فى رسم الصورة الشعرية فى شعر الطبيعة عند مطران فما منزلة الخيال عنده؟

أ-الخيال

ولكن قبل أن نتعرض للخيال وقيمته فى رسم الصورة عند مطران

يقتضينا أن نتساءل ما هو الخيال ؟ وما دوره فى إبراز الصورة الشعرية؟

والجواب: إن الخيال فى أبسط صورة عبارة عن: نقل الفكرة أو المعنى من صورة إلى أخرى أجمل منها وأكثر تأثيرا فى النفس، وعناصره: التشبيه، والاستعارة، والكناية، والطباق، وحسن التعليل.

وهو بهذا المعنى يتفق، ومفهوم الخيال فى اللغة، إذ تدور مادته حول تصور الشئ فى غير صورته، أو تلونه بغير ألوانه، كما توحى بأن الصورة الجديدة المتخيلة أجمل من الأولى، فالخيال: علامة الجمال فى الوجنات والمخيلة والخيلاء، ظهور المرء فى مظهر الرفعة والاستعلاء، و"اختالت الأرض" ازدانت بالنبات وهكذا. (١) والخيال عنصر هام فى الصورة الأدبية لأن الأدب، وبخاصة الشعر لا يقبل تصور الحقائق، والأفكار مجردة، ولا عرضها بالصورة التى عليها فى الواقع، بل لابد أن يكون تصويرها من خلال المشاعر والانفعالات لتمنحها الحرارة والقوة ولأهميته جعله كثير من النقاد لغة الفن الدبى، وإذا خلا الكلام منه فهو بعيد كل البعد عن المجال الفنى عند كثير من النقاد. (٢)

فالصورة التى تحتوى على عنصر الخيال أقوى تاثيرا فى النفوس،

---

(١)انظر لسان العرب لابن منظور ص١٣٠٦ مادة خيل طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٦

(٢)النقد الأدبى لسهير القلماوى ص٦٨ ط دار المعارف – القاهرة – سنة ١٩٥٨

لارتباط العاطفة به إذ أن العاطفة التى هى مجموعة من الانفعالات التى تتجمع حول معنى شئ من الاشياء لا يمكن معرفتها بدونه، فهو الذى يصورها، ويبعث مثلها فى نفوس القراء والمسامعين، وقوته مرتبطة بقوتها، فإذا كانت صادقة قوية أنشأت خيالا رائعا، وإذا كانت سقيمة، أو مصطنعة كان الخيال هزيلا سخيفا. والخيال الشعرى ينقسم إلى نوعين أساسيين:

الأول: الخيال الابتكارى ويطلق على الأعمال الأدبية التى ينسجها الأدباء فى خيالهم من غير أن يكون لها واقع حدث[١]

أو هو تأليف مجموعة من العناصر المختزنة فى الذهن فى صورة مبتكرة يتحقق معها كيان خاص بها[٢]

وهذا الخيال بدوره ينقسم إلى ضربين:

أ-نافذ يعين صاحبه على استحضار طيوف الماضى وتصوير حوادثها

ب-وخالق يجسم الاحساسات ويخلق الشخصيات

أما الضرب الأول: فهو ملحوظ فى شعر مطران التاريخى[٣] وقصيدته عن "الأهرام" من أبرز ما يمثل هذا الخيال.

فالشاعر بخيال نافذ انتهى أمام مشهد الأهرام إلى الماضى السحيق

---

(١) إتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص٨٩ د.محمد نايل أحمد مطبعة العاصمة شارع الفلكى بالقاهرة سنة١٩٦٥

(٢)شعراء معاصرون ص٣٨٨

(٣)شعراء معاصرون ص٣٧٨

حيث كانت تبنى الأمم ورأى الخلائق المسوقة لتشييدها. وصور الموقف تصوير بار (١)

وأما الضرب الثانى: وهو الخيال الخالق فيجئ بكثرة مشاعة عنده، وجل خيال شعره القصصى منه وعلى وجه خاص خيال ملحمة "فتاة الجيل الأسود". "وفاء، والعقاب" و"فنجان قهوة" و"غرام طفلين" و"الجنين الشهيد" و"بنت شيخ القبيلة" و"تيرون" ويطل إسماعيل أدهم: لكثرة الخيال الخالق عنده بقوله:

"وسبب لمجئ خيال شعره القصص من النوع الابتكارى راجع إلى أن أسس الشعر القصصى فى العادة هو الخيال الابتكارى، والواقع أن هذا الخيال يتميز عند مطران بقوة التصوير للخلال والصفات التى يخلعها الشاعر على شخصيات قصصه، ووصفه بدقة للحالات النفسية التى ينفخها فى الشخصية. ولا أدل على ذلك من ملاحظة مقتضى الحال بين الشخصية فى روحها وبين البوادر التى تظهر منها، وذلك بين فى تصويره فتى قصة "وفاء" فى حالة متوزع القلب وقلعة العاطفة حتى يصدق معه تصويره لما حل به الموت حزناً على أثر وفاة قرينته فهو يقول عن الفتى:

رآها فتى خال فملك حسنها قياد الهوى فى قلبه المتوزع
وكان ضعيف الرأى فى أمر نفسه رقيقا حواشى الطبع سهل التطبع

---

(١)سبق أن ذكرت هذه القصيدة فى خاصة " الألفاظ والأساليب " ومن أراد الإطلاع عليها فليجدها فى الديوان ج٢ ص٤٦٠

أديبا صبيح الوجه بين ضلوعه فؤاد جواد بالمحامد موزع غنيا على البذل الكثر موطاً له كشف العلياء فى كل مفرع[١]

أما النوع الثانى من الخيال الأساسى وهو: الخيال التصويرى أو التفسيرى. فهو الذى يجئ مما شاهد الشاعر وأحسن مما قرأ وسمع

ويذكر بعض النقاد وأن هذا النوع خير وسيلة لوصف الطبيعة وصفا أدبيا رائعا لأنه يقوم على إدراك جمال الاشياء وأسرارها، ثم أختيار العناصر التى تمثل هذا الجمال قويا[٢]

وهذا النوع هو الأكثر شيوعا فى الشعر وجل الصور الشعرية التى فى الأدب العربى منه " ومعلوم أن الخيال التصويرى يبدو فى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والتورنة والتمثيل"[٣]

وشعر مطران فى الطبيعة من النوع الثانى وهو الخيال التصويرى الذى تميز به كما يقرر ذلك النقاد المعاصرون له من أمثال "إسماعيل أدهم" وأنطوان الجميل، أما إسماعيل أدهم فيقول: "أما أن عنصر الخيال غلاب على عنصرى العاطفة والفكرة فى شاعرية الخليل، فلا أدل على ذلك من أجل أغراض شعر الخليل تنتهى عند الغرضين الوصلفى والتصويرى، ومنهما يجئ شعر القصص

---

(١)شعراء معاصرون د.اسماعيل أدهم ص٣٧٩

(٢)أصول النقد الأدبى الحديث د. أحمد الشايب ص٢١٩ مكتبة النهضة المصرية ط الثانية سنة١٩٧٣

(٣)شعراء معاصرون ص٣٦٨

والرثاء والوجدان، ويأتى ما يأتى من شعر المناسبات، وظهور جانب الوصف والتصوير فى شعر الخليل، وهما مظهران لعمل الخيال دليل على غلبة عنصر الخيال عنده "ويستطرد قائلا:" ولعل مجئ الخيال فى المقام الأول من شاعرية مطران يعود بأصله إلى تعدد الجوانب فى طبيعته الفنية فتعكس الحياة فى صورة مركبة يبدو من خلال تركيبها عمل الخيال فيها"(١)

وأما أنطون الجميل فقد كتب فى دراسة له نفيسة عن شعر مطران عندما صدر ديوانه سنة ١٩٠٨م فى مجلة الهلال بعنوان "إن الخيال شرط الشاعرية الأول عند الخليل" وكثيرا ما رأينا خليلا أدق تصويرا " وأبلغ رسما من أمعهر المصورين، فإذا وصف الجندى الجريح وقائده يقلده وساما قال:

وكل جراحة فيه وسام

وإذا كانت نفسه مثقلة بالهم يرى ذلك الهم:

..... كبحر ضم فى جوفه البعيد غريقا

وإذا اشتكت عينه المسهدة طول الليل فهى:

وترى الشهب فى سماء حروقا تحسب السرج فى حشاه قروحا

وهذا بيت تكاد تكون كل كلمة فيه صورة حسية. (٢)

---

(١)شعراء معاصرون ص٣٧٦

(٢)مجلة الهلال – يونيه سنة ١٩٠٨، ص٥٣٢

ويعلق الجميل على الخيال فى البيت الاخير بقوله:

ومطران يبلغ بهذا الخيال قمته فى شعره فى الطبيعة وكما قلت أنفا وفى استطاعتنا أن نلمس قوة هذا الخيال – التصويرى – فى وصفه لطيارة من قصيدة له فى تحية " الطيارين العثمانيين" وفيها يقول:

فرس كما حلم الجدود مجنح حتى يؤوب بذلة الغيطان
يدعو الرياح عصية فتنيله أكتافها بالطوع والإذعان
يسمو فتتضع الشوامخ دون قد حققته بفطنة الأزمان
يطأ السحائب ممعنا فى شوطه زجل الفؤاد له أزيز الجان
فترى مناثرها هوت وجبالها دكت وأبحرها عفت فى آن
وترى قراها العامرات روضها أقوين عن حسن ومن عمران
وترى الصفوف الكثر من حيوانها بادت فما كانت من الحيوان
وترى عوالم ليس منها باقيا إلا اختلاط أشعة ودخان[١]

هنا دليل على عنصر الخيال التصويرى (التفسيرى) فى وصف "الطيارة" وصفاذا صور شتى، كل منها تلائم صفة من صفاتها المصورة (المتمثلة فى الذهن) فهى فى البيت الأول فرس مجنح كما حلم به الجدود، حققته يد الأزمان، وهى فى البيت الثانى تدعو الرياح العصية فتيلها أكتافها مذعنة، وهى فى البيت الثالث تسمو فى عالم الأجواء حتى لتخط دونها الشوامخ وتؤوب بذلة الغطيان،

---

(١)الديوان جـ٣ ص٢٨٧

وفى البيت الرابع تطأ السحاب ممعنة فى سيرها خافقة الفؤاد لها أزيز الجان: يقصد أزيز المحركات، وهى فى البيت الخامس يبدو لها منظر منائر الأرض وقد هوت وجبالها قد دكت وأبحرها وقد عفت فى آن.

وكذلك من الأبيات التى تدل على أصل من الخيال التصويرى قوله من قصيدة "الشباب المنقضى والصداقة الباقية":

وكنا كموسى حيث بان وفلكه على النيل عشب يابس ورطيب
مشت فوق تيار البوار تخطرا تراءى بصافى الماء وهو مريب
يعض الرادى أطرافها بنواجذ من الموج تبدو وتارة وتغيب
ويضحك وجه القاع من رقة لها وما تحته إلا دجى وقطوب
تجانبها الأخطار والطفل نائم وترعى سراها شمال وجنوب

ولا يخفى ما فى هذه الابيات من قوة الخيال الذى تجلى فى التشابيه والاستعارات والكتابات، التى تضمنتها هذه الأبيات.

وقد استطاع بفضل ذلك الخيال أن يمتزج بالطبيعة حتى يرى نفسه فى مرآتها وكأنه يكون معها أصى وصورة.

ب-الصورة الفنية:

قلنا أن للخيال دوراً أساسياً فى إبراز الصورة، من حيث إن قوة تمكن الشاعر من رؤية الواقع بشكل فيه جدة وطرافة، وبالتالى ينعكس أثرها على المتلقى فيجد فى فنيتها لذة ومتعة، فتحقق مهمة

الشعر، إذ مهمة الشعر فى النظرية الرومانسية تتحقق من خلال المتعة أو اللذة التى يشيعها فى وجدان المتلقى فـ "الفرض من الشعر هو أن يؤثر فى النفس أثرا يبقى ما بقيت نشوته، وإن كانت النشوة أرجح مدارا من التأثر".

وقد سبق أن قررنا أن الخيال كان العنصر الأول فى شاعرية مطران، ومن ثم فقد استطاع باستخدام الخيال أن يرسم على لوحات شعره صوراً فنية رائعة على ما سنوضحه فى النماذج التى سنوردها من شعره.

وقبل أن نستعين على استجلاء صوره الفنية فى شعره فى الطبيعة ومناظرها يجدر بنا أن ننوه بأن الشاعر قد استمد صوره من الخيال الرومانسى الذى يسبح فى أطواء النفس ومسارح الطبيعة يمزج هذه بتلك ويصور مشاعره الخاصة من خلال مظاهرها العامة.

فإقبال الربيع هو إقبال الشباب، وتفتح الورود هو تفتح القلوب بالحب والأمل والسعادة، وصخب البحر وهدير أمواجه هو غضب الطبيعة على الناس وهكذا لكل حال فى الطبيعة حال فى الناس فى سرائهم وضرائهم[١] ولنعش الآن مع بعض نماذجه الشعرية نستجلى منها صورة الفنية وهاك أبياتاً من قصيدته "المساء":

شاك إلى البحر اضطراب خواطرى فيجيبنى برياحه الهوجاء

---

(١)اتجاهات وآراء فى النقد د.محمد نايل ص١٠٥

ثاو على صخر أصم وليت لى قلبا كهذى الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهى ويفتها كالسقم فى أعضائى
والبحر خفاق الجوانب ضائق كمدا كصدرى ساعة الأمساء
تغشى البرية كدرة وكأنها صعدت إلى عينى من أحشائى
والأفق معتكر قريح جفنه يغضى على العمرات والقذاء[١]

فقد رسم الشاعر صورة كلية لموقفه على شاطئ البحر عند المساء، وقد ترابطت فيها الأفكار بالمشاعر، فاكتملت أجزاؤها وعناصرها، وهى: الشاعر والبحر والرياح والصخر والأفق والظلام وحمرة الشفق، وتتجلى فيها خطوط اللون والصوت والحركة فاللون نراه فى زرقة البحر، وغبرة الصخر ورغوة الموج، وكدرة المساء، واعتكار الأفق، وقروح الجفن، والصوت نسمعه فى شكوى الشاعر، وإجابة البحر الهادر، وعصف الرياح الهوجاء. والحركة نحسها فى اضطراب الموج، وتفتت الصخر، وخفقان البحر.

وفى خلال تلك الصورة الكلية جاءت صور جزئية ففى البيت الأول "شاك إلى البحر" تشخيص يصور البحر صديقا يبثه الشاعر شكواه، وكذلك "يجيبنى رياحه الهوجاء" يخيل البحر إنسانا مضطربا، والرياح الشديدة تعبر عن شدة انفعاله، وفى البيت الثانى "قلبا كهذى الصخرة الصماء" تشبيه.

---

(١)الديوان جـ١ ص١٨

وفى البيت الثالث يشبه موج البحر فى تتابعه على الصخرة بموج المكاره التى تتابعت عليه من الحب والمرض والغربة، وفى "موج مكارهى" تشبيه للمكاره فى كثرتها بالموج. وفى "يفتها كالقسم فى أعضائى " تشبيه لموج البحر حين يفتت الصخر بالمرض فى أضعاف أعضائه. فالشاعر هنا يسوى بينه، وبين الصخر فى كون كل منهما ضعيفا مهموماً حزينا.

وفى البيت الرابع " والبحر خفاق الجوانب ضائق كمدا" استعارة مكنية، تصور البحر إنسانا حزينا ضيق الصدر. وقوله "والبحر.. ضائق كمدا كصدرى ساعة الإمساء "تشبيه. وهاتان الصورتان تدلان على اندماج الشاعر بالطبيعة، وأنها تشاركه آلامه وأحزانه.

وفى البيت الخامس " تغشى البرية كدرة " استعارة مكنية تصور الكدرة ثوبا أسود يغطى الكون. وفى "وكأنها صعدت إلى عينى من أحشائى " كناية عن شدة حزن الشاعر، فالشاعر هنا يخلع آلامه على الطبيعة. وفى "أحشائى" مجاز مرسل علاقته الكلية، فأطلق الأحشاء وأراد القلب.

وفى البيت السادس استعارة مكنية فى "والأفق معتكر" تصور الأفق ماء عكرا، و"يفضى على الغمرات والأقذاء " استعارة مكنية تصور الأفق إنسانا معذبا تقرحت أجفانه. و"يفضى على الغمرات والأقذاء" امتداد لما قبلها، وترشيح لها.

وهذه الصور كلها تعكس عاطفة الشاعر على الطبيعة، فنراها

مصورة فيها، فهو حزين متألم مهموم مريض، كل ذلك مصور فى الطبيعة أتم تصوير، فهى مرآة عاكسة لما يعانيه الشاعر.

على أن التشبيهات والمجازات والكنايات عند الرومانسيين لا تراد لذاتها وإنما تراد لشرح عاطفة أو تضويح حالة أو بيان حقيقة.

ومن ثم لا يصح الوقوف بها عند التشابه الحسى بين الأشياء مرئيات أو مسموعات أو غيرهما دون ربط التشابه بالشعور المسيطر على الشاعر فى نقل تجربته.

وكلما كانت الصورة أكثر ارتباطاً بذلك الشعور كانت أقوى صدقا وأعلى فناً "فأشد ما يضعف الصورة أن يقف بها الشاعر عند حدود الحس مما تسميه البلاغة العربية القديمة (الجامع فى كل) دون نظر إلى ربط هذا التشابه الحس بجوهر الشعور والفكر فى الموقف، فمثلا قول ابن المعتز فى وصف الهلال:

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

ينقل إلينا شعورا صادقا بجمال الهلال وروعته، لأن الشاعر بحث عن نظير حسى لما يراه دون أن يتصل هذا النظير بشعور محدد، أو فكرة[١] أما مطران فقد استطاع بمهارة ربط التشابه بالشعور المسيطر على مشاعره فى نقل تجربته حيث مزج مشاعره بالطبيعة فبث فيها الحركة وشخصها وأدار معها الحوار واتخذ منها أصدقاء

---

(١)النقد الأدبى الحديث. محمد غنيمى هلال ص٤٤٦

يشكو إليهم ويشعر وهو بهمومهم. فقد صور البحر صديقا بثه أحزانه، وأجنبه البحر بما يفيد أنه مضطرب مثله مما يوحى بالتجاوب بين الطبيعة وبينه.

والواقع أن خليل مطران شاعر مصور ولا أدل على ذلك - كما يقول إسماعيل أدهم- من أن شخصيته وذاتيته غابت وراء الصور التى تجئ من العالم الخارجى (عالم الموضوع) والتى تمر خلال نفسه المتعددة النواحى والجوانب فتتخلى إلى أوصاف وصور تصويرية مثال ذلك ما يقوله مطران فى قصيده " العالم الصغير مرآة العالم الكبير فنجان قهوة":

أرأيت صوغ الدر فى العقيان هذا حباب البن فى الفنجان
فلك تمثل شمسه ونجومه افلاكنا فى السير والدوران
ليلى أجيلى الطرف فيه تنظرى سر الكيان وآية الأزمان
تجدى سماوات وسعن عوالما فاتنة الإبداع والاتقان
منثورة أفرادها منظومة جمعا بما لا تدرك العيان
سيارة خلل الجهات حوائرا مرتادة فى البحث كل مكان
كل يصير إلى حبيب مرتجى حتى يدانيه فيلتصقان
فيذوب كل منهما فى صنوة وكذلك يحيا بالهوى الصنوان
جسمان يغتديان جسما واحدا كتوحد الحبيس يقترنان

روحان تمتزجان حتى نصبحا شبه الصبا والطيب يمتزجان[١]

ففى هذه القصيدة بلغت فيها الصورة الفنية عند الشاعر مبلغا جعله يصور حباب البن فى الفنجان وكأنه من الأحياء والقدرة على التشخيص لاشك وليدة خيال قوى واسع وشعور عميق زاخر ومن أبرز القصائد التى تبرز صورة حية قصيدته "عين الأم" ففيها يقول:

عاجت أصيلا بالرياض تطوفه كمليكة طافت معاهد حكمها

حسناء أمرها الجمال فأنشأت فى أيكها الأطيار تخطب باسمها

والحسن أكمل ما يكون شبيبة فى بدئها وملامحه فى تمها

سترت بأخضوز سندسى جيده فحكى المحيا وردة فى كمها

وتمايلت فى ثوب خز مورق غصنا وهل للغصن نضرة جسمها

فإذا دنت فى سيرها من زهرة همت بأخذ ذويلها وبلثمها

أو جاورت فرعا رطيبا لينا أهوى بمعطفه ومال لضمها

كالنحل طغن بزهرة فلسعنها ورشفن منها ما رشفن برغمها

حتى إذا حلى العياء جبينها بندى وأخمد جمرة من عزمها

جلست تقابل أمها وكأنما كلتاهما جلست قبالة رسمها

لكن عاصفة أغارت فجأة بالهوج من لدد الرياح وقمتها

فاهتزت الغيراء حتى صافح عذبات سرحتها منابت نجمها

---

(١)الديوان جـ٢ ص٢٦٨

وتناثرت ضفر الفتـــاة غمائمـــا سترت عن الأبصار طلعة نجمها فتحيرت فيما تحاول وهـــى قـــد أعيت بلا مرآتها عـــن نظمهـــا فدنت تحاذى أمهـــا وتنـــاظرت بعيونها وجلت ســـحابة همهـــا وكذا الفتاة إذا ابتغـــت مرآتـــه فتعذرت، نظرت بعينى أمهـــا[١]

فالشاعر فى هعذه الأبيات بها أوتى من ملكة الاقتدار على التصوير استطاع أن يرسم صورة كلية ترابطت فيهـــا الأفكـــار بالمشـــاعر فاكتملت عناصرها وخطوطها الفنية حيث أظهر مقدرة على محاكاة المشهد الذى استوقف نظره والذى يقول فيه:

"كنت فى حديقة الجيزة أصيل يوم هبت فيه ريح السموم فرأســـيت فتاة تنظر فى عينى أمها وتصلح شعرها." وهذه المقدرة نتيجة ملكة التصوير التى تنقل الأشكال الموجودة فى الخارج كما تقع فى عالم الحس والشعر والخيال. فالالوان مضبوطة بقدر، والشكل منقـــول، والحركة وهى أهم شئ فى فن التصوير ممثلة فى جملتها وتفصيلها بوضوح وصدق.

٤-الموسيقى

من المعروف أن الموسيقى ترتبط بالشعر منذ نشأته، وقـــد ســـمى الأعشى وهو من شعراء الجاهلية المتقدمين – بصناجة العرب وما ذلك إلا لأنه كان يوقع غناءه على الألة الموسيقية المعروفة باســـم

---

(١)ديوان الخليل جـ٣ ص٤٨٧

الصنج ولا تزال جماعات فى ريفنا المصرى تؤلف الشعر وتنشده على بعض الآلات الموسيقية.

والشعر كأى مادة له شكل وله جوهر. أما شكله فيتمثل فى قالبه الظاهرى المتمثل فى الوزن والقافية وهو ما يطلق عليه الموسيقى الخارجية، وأما جوهره فيتمثل فى *وظيفته ورسالته*، *ووظيفة الشعر* عند مطران هى التعبير عن الحياة فى سرها الروحى.

ولما كان الشعر تجربة الدنيا تملى على الشاعر صورا من الحياة، وهذه الصور من حيث إنها تخالط شعور الشاعر وتجئ من وجدانه، فإنها تجعل أغراض الشعر منتهية عند حد التعبير عما فى الوجدان من معانى الحياة وصورها التى خالطته.

وعمق استيعاب الشاعر للطبيعة ومنحى إبرازه وعرضه لمشاعره وإحساساته الصادقة نحوها وقدرته على إبراز هذه المشاعر والأحاسيس بالتعبير الجميل والاسلوب البديع مستخدماً المحسنات البديعية التى تضفى على الاسلوب رونقا وبهاء بحيث يكسو تلك المشاعر والأحاسيس ثوبا قشيباً منسوجا من الفصحى الخالصة. فلذلك ما يعبر عنه بالموسيقى الداخلية[١] أقول بقدر عمق الشاعر

---

(١)عن هذه الموسيقى يقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه " الفن ومذاهبه فى الشعر " طبع دار المعارف بمصر ط٤ ص٨٠ " وهذه الموسيقى يشخصها

فى كل ما تقدم بقدر ما تسمو منزلته ويكون لشاعريته قيمة. إذ الشعر فى أوجز تعريف له هو: " التعبير الجميل عن الشعور الصادق"(١)

والشاعر فى أوجز تعريف له أيضا هو " الإنسان المتميز بالعاطفة والنظرة إلى الحياة القادر على الصياغة الجميلة فى إعرابه عن العواطف والنظرات"(٢)

ولهذا رأى بعض النقاد المحدثون أنه على قدر اهتزاز أوتار نفس الشاعر بما فى الطبيعة من مشاهدات وصور وقدرته على التعبير عن رؤيته الذاتية شاعرية الشاعر." ذلك أنه لما كان الشعر من حيث هو فيض الشعور والوجدان نتيجة اهتزاز أوتار النفس البشرية أمام الحياة الكامنة فى الاشياء فإنه على قدر الاهتزاز وقوته تكون مقدار شاعريته فى الشعر، ذلك أن الهزة التى تستولى على نفس الشاعر كلما كانت قوية تكشفت أسرار الحياة ومعانيها لوجدان الشاعر فى حقيقتها فتجعل الشاعر قادرا على النفوذ عن طريق وجدانه إلى ما وراء المظاهر الخارجية للأشياء.

جانبان مهمان: وهما اختيار الكلمات وترتيبها من جهة ثم المشاركة بين أصوات هذه الكلمات ومعانيها من جهة أخرى.

(١)أنظر العقاد فى "يسألونك" ص٧٧ مطبعة مصر ١٩٤٦

(٢)العقاد من مقدمته للجزء الثانى لديوان شكرى ط الثانية القاهرة سنة ١٩٦٠ جمع وتحقيق وتقديم نقولا يوسف

ومن هنا يمكن أن يقال إن الطبيعة تلقى جانبا من معانيها الخالدة لنفس الشاعر فى اهتزازات أوتار نفسه أمامها. فالشاعر أشبه بآلة موسيقية أمام الطبيعة. والطبيعة كالأنامل التى توقع عليها والأنغام التى تخرجها الآلة أشبه ما تكون بالشعر الذى يفيض به وجدان الشاعر[١]

وقد كان مطران بشهادة من كتبوا عنه[٢] من شعراء الصناعية الفنية فى الأدب العربى فنراه ينظم القصيدة، ثم يعيد النظر فى أعطافها يطلب فصاحة الكلم وجزالة اللفظ وبسط المعنى وإبراز الفكرة وأتقان البنية وإحكام القافية وتلاحم الكلام بعضه ببعض، ومن هنا جاء الجهد المبذول فى صياغة شعره، والصناعة تظهر فى تهذيبه تعابيره الشعرية وصقل ألفاظه بحذف غريبها أو متنافرها وحرصه على انسجام موسيقاه الشعرية وتحريه مساواتها وجريه وراء التناسب بين الفقرات والجمل.

ومن هنا جاءت جزالة شعره وحسن سبكه وخلوه من الفضول اللفظى

إلا أن الصنعة عنده غير مطلوبة لذاتها، وإنما تكون لبسط المعنى وإبراز الفكرة فى صورة تتفق مع جلال المعنى وروعة الفكرة، فلم يقصد الموسيقى الشعرية لذاتها وإنما أتت موسيقاه من أنه راعى التناسب بين بعث الروح الشاعرية والصنعة الفنية هذا التناسب بين

---

(١)أنظر إسماعيل أدهم ناقدا ص ٩٤

(٢)من أمثال إسماعيل أدهم وانطون الجميل، وأحمد زكى أبو شادى، وإيليا حاوى وفوزى عطوى منمن عاصروه أو جاءوا بعده

الشاعرية والصنعة هو الأساس الذى ينبع منه فن الخليل وأن الأصل الشعرى هو الذى يملك على صناعته مداخلها ومن هنا جاءت عباراته مقسمة منتدة ذات جرس موسيقى. وهذا واضح فى قصيدته "المساء" الذى تصدرت أول ديوانه الشعرى وهى قصيدة باهرة بإجماع النقاد[١] كما نلحظ تلك الموسيقى والتى نبعث عنده – كما قلت– من رعايته التناسب بين العبارة والفكرة. هذه الموسيقى نلحظها كذلك فى قصيدة " تذكار " فإن فى المعنى والفكرة الذيسن تحملها القصيدة من روح الانفعال، ما استولى على التعبير فظهرت فيه موسيقاها. ولما كان الايقاع خاضعا للموسيقى فقد رأينا تلك الموسيقى لا تظهر فى شعر مطران فى الصورة لأول وهلة لأنها لا تتبع من الالفاظ، كما هو الحال فى شعر البحترى وأحمد شوقى وإنما تتكشف هذه الموسيقى بمعاودة القراءة فنجد موسيقاها تنساب مع أبياتها فى اتئاد يتناسب مع المعنى ويساير الفكرة.

ولهذا نجد أن الموسيقى فى قصيدة (بنفسجة فى عروة) التى سبقت الإشارة إليها خفية تكاد لا تلمس نظرا لأن عنصر العقل يغلبها. وذلك بعكس الحال عندما تكون الفكرة المستولية على القصيدة هى عنصر الانفعال، فإن الموسيقى عندئذ تبدو للوهلة الأولى فى صورة تستوقف السمع والمشاعر.

---

(١)أنظر لشوقى ضيف فى الأدب العربى المعاصر فى مصر ص١٢٦، وايليا حاوى فى خليل مطران شاعر القطرين جـ٤ ص٤٢ وغيرها.

كما تظهر تلك الموسيقى فى قصيدته "كان" والتى يقول فيها:

سـررت فـى العمـر مـرة وكنـت أنـت المسـافره
كانـت حياتى روضـا وكنـت فـى الـروض نضـره
وكـان غصـن شـبابى وكنـت فـى الغصـن زهـره
وكـان فكـرى سـماء وكـان حبـك فجـره[١]

إلى أخر القصيدة

فإننا نرى فى هذه الأبيات من سهولة النظم، ورقة الالفاظ وحلاوة الكلام وجودة الوصف، وكثرة الماء، ما يجعلها بابا لوحدها هى وقصائد أخرى تنتظم معها فى عقد على أنه لا يفوتنى قبل أن أنهى كلمتى حول الموسيقى فى شعره سواء أكانت داخلية أم خارجية من أن أقول: إن مطران كان مجددا فى المضمون وهو ما تشتمل عليه الموسيقى الداخلية. أما الموسيقى الخارجية فإنه كان حريصا على الابقاء على القوالب الشكلية إذا احتفظ لشعره كما فى قصيدته "نفحة الزهر"[٢] حيث جنح فيها بحوار عدة متأثرا بطابع الأندلسيين فى الموشحات بالاوزان القديمة ولم يخرج عنها إلا قليلا، وبذا استطاع أن يمزج بين القديم والجديد. أخذ من القديم الوزن والصياغة ثم استطاع بمهارته أن يودع هذا الاطار موضوعات شعره الجديدة.

---

(١)تقوم ذكر هذه القصيدة فى ثنايا البحث

(٢)أنظرها القصيدة فى الديوان جـ٢ ص٥٢ - ٥٦

٥-الوحدة الفنية

ومع احتفاظ مطران بالقديم إلا أنه لا يجرى القديم عنده منفردا، بل يجرى ومعه تيار جديد صب فى شعره من الغرب نتيجة ثقافته الغربية، وتأثره بأدابها، بجوار ثقافته العربية الأصلية، وكان يحس هذا التيار إحساسا قويا دفعه إلى الاحتفاظ بشخصيته، فلم يفن فى القديم، بل مضى يجدد.

وكان من أهم ما اتجه إليه فى تجديده أن يعبر تعبيرا مستقيما عن أحاسيسه غير متكلف لتشبيهات القدماء واستعاراتهم على نحو ما يصنع شوقى.

وبذلك أعطى لشعره فسحة واسعة من الابتكار فى المعانى والافكار وتبع ذلك أن "القصيدة عنده أصبحت تعبيرا نفسيا متكاملا، وبعبارة أخرى أصبحت عملا ذاتيا تاما، فتجلت فيها الوحدة الفنية، وأصبحت فى مجموعها تعالج موضوعا واحدا، إذ لم يعد يسلك إلى مضووعاته الأدبية مقدمات القدماء ولم يعد ينهج نهجهم فى بعثرة موضوعات مختلفة فى القصيدة الواحدة، بل القصيدة تقف عند تجربة نفسية خاصة والشاعر يصوغها فى أبيات متعاقبة، كل بيت فيها جزء فى التجربة، فلا نبو ولا شذوذ ولا تفكك بين الأبيات، وإنما الالتحام والاتساق، إذ هى خيوط فى نسيج واحد، أحكمت

صياغته إحكاماً دقيقا. (١)

ومطران إنما يستمد فى ذلك نمن نموذج القصيدة الغنائية عند الغربيين، إذ تصل الأبيات فيها وحدة عضوية تامة.

وهذه الوحدة لازمة من لوازم النزعة الفنية عند الرومانسيين والتى أتبعها خليل مطران ودعا إليها فى مقدمة ديوانه عندما قال:" هذا شعرى وفيه كل شعورى شعر الحياة والحقيقة والخيال.. قيدت فيه زفراتى وأحلامى.

عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر ؟ هذا شعر عصرى وفخره أنه عصرى وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر.

هذا شعر ليس ناظمه بعبده، ولا تحمله ضرورات الوزن والقافية على غير قصده يقال فيه " المعنى الصحيح باللفظ الفصيح " ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره، وشاتم أخاه، ودابر المطلع، وقاطع المقطع، وخالف الختام، بل ينظر إلى جمال البيت فى ذاته، وفى موضعه من القصيدة، وإلى جملة القصيدة فى تركيبها، وفى ترتيبها، وفى تناسق معانيها، وتوافقها مع ندور التصور، وغرابة الموضوع، ومطابقة كل ذلك للحقيقة، وشفوفه عن الشعور الحر، وتحرى دقة الوصف، واستيفائه على قدر.

---

(١)الأدب العربى المعاصر فى مصر د.شوقى ضيف ص١٢٥

على أننى أصرح غير هائب: إن شعر هذه الطريقة هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا[١]

ومطران صادق مع نفسه فى دعوته إلى الوحدة الفنية[٢] مخلص لموهبته ملتزم بمفهوم الشعر عندما قال هذا الكلام الذى يعكس نظرته للوحدة العضوية[٣]

ولما كان مطران يريد من شعره فى الطبيعة أن يترجم عن الطبيعة وحقائقها وأسرارها المبثوثة فيها، وأن تكون الطبيعة لصدى لما

---

(١)مقدمة ديوان الخليل

(٢)على أننا نلمح إرهاصات أو قل سوائح فى الفكر النقدى للشيخ حسين المرصفى تشير إلى بدايات الوعى بالوحدة العضوية للقصيدة يبنى هذا فة قول المرصفى: ".زثم أجمعها وانظر جمال السياق وحسن النسق فإنك لا تجد بيتا يصح أن يقدم أو يؤخر ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالثا، المرصفى: الوسيلة الاوربية جـ٢ ص٤٤٧

مما دعا د. محمد مندور إلى القول بأن المرصفى ومطران، فى مقدمة ديوانه، قد سبق مدرسة الديوان فى القول بالوحدة العضوية للقصيدة.

(٣)يقول د.محمد غنيمى هلال فى تعليقه على دور مطران فى مشكلة الوحدة العضوية للقصيدة " إن تأثير مطران فى معاصريه أو لاحقيه لا يعدو أن يكون تنبيها للوعى الفنى لامتياح ذوى المواهب من الموارد الاصلية فى أدب الغرب. وإذا كان لبعضهم فضل السبق إلى التجديد فليس له أثر كبير فى التأثير، إذ كان هؤلاء يستصيعون الرجوع إلى مصادر التجديدى بأنفسهم، وكانوا قادرين على هذه الافادة من متابعة الأصلية."مجلة الآداب، بيروت، يناير سنة ١٩٧١م.

نفسه من فرح وسرور وآلام وأحزان، اقتضى بذلك أن تجئ قصائده فى الطبيعة مسلسلة الافكار مرتبة المعانى فلا تسبق الفكرة الصغرى وإنما الأفكار بمثابة النتائج المترتبة على المقدمات فى تسلسل ودقة وإحكام. كما أن معانيه جاءت متداعية حيث يدعو المعنى معنى آخر عن طريق المشابهة كما أنها أتت متوالدة بحيث يتولد عن المعنى الأول معنى ثان وهكذا.

وفى استطاعتنا أن ندرك هذا واضحا فى قصيدته "المساء" حيث جاءت بناء واحداً متماسك الأجزاء بجانب وحدة الموضوع وكذلك صح أن يجعل لها عنواناً يتضمن موضوع القصيدة وهو المساء وما يضيفه عليه من كآبة وأحزان.

وفى استطاعتنا كذلك أن نتبين الوحدة الفنية بكل أجزائها فى قصائد غير المساء من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قصيدته "شروق شمس فى مصر" و "مشاكاة بينى وبين النجم" وغيرها.

ويبدو هذا فيما أنقله من نماذج استشهد بها على ما أريد إثباته من مضووعات إذا أجدنى لا استطيع الاقتصار على بيت من القصيدة أو حتى على جزء منها، وإنما اضطر اضطرارا على أن أمضى فى القصيدة إلى أخرها أو ما يقرب من الآخر، وما ذلك إلا لتتابع أفكارها وتوالد معانيها ووحدة موضوعها واستاق معانيها وتلاحم أجزائها وارتباط أبياتها بحيث يصعب على الاقتصار على جزء منها خوفا من أن يأتى المعنى مبتوراً والهدف الذى أقصده منقوصا.

الفصل الرابع

شعر الطبيعة عند مطران بين التأثر والتأثير

أولا: تأثر مطران بشعر الطبيعة

قبل أن نعرض الأثر الذى تركه "شعر مطران فى الطبيعة" فى معاصريه، وفى من تلاه يجدر بنا أن نشير إشارة سريعة إلى تأثر مطران نفسه بشعر الطبيعة.

وفى الامكان أن نرجع تأثره بشعر الطبيعة إلى ما يلى:

١-ثقافته العربية:

تلك الثقافة التى جمعت بين التالد والطريف. وقد علمنا أنه بدأت فى لبنان حركة مواكبة لحركة البعث والاحياء فى مصر، وكان رائد هذه الحركة فى لبنان الشيخ إبراهيم اليازجى وابنه خليل. وقد عملت هذه الحركة جاهدة على إحياء التراث العربى القديم وتمجيده، والعمل على بعثة الإفادة منها، والعودة بالادب العربى إلى ما كان عليه فى عصور القوة، أيام العصر الجاهلى والعباسى والأندلسى وأقبل اللبنانيون على استظهار شعر الفحول من أمثال أمرئ القيس والنابغة وزهير وغيرهم من شعراء العصر الجاهلى، كما أكبوا على استظهار دواوين الشعراء النابهين من أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى والصنوبرى والشريف الرضى وسواهم من شعراء العصر العباسى. ومن أمثال ابن زيدون وابن هانى وابن خفاجة من

شعراء الأندلس.

فى هذه البيئة وجد مطران نفسه يتثقف بثقافتهم ويقبل على دراسة الأدب العربى إقبالا فاق إقبال غيره من مثقفى بيئته، إذ أقبل على استظهار دواوين الشعر فى أزهى عصوره، وأحب اللغة العربية التى أزداد إعجابه بها، فرأى فيها كفاية الأديب للتعبير عن خوالج نفسه، كما أنه رآها من أغنى لغات العالم من حيث مفرداتها وإيحاءاتها، وثلاثة تراكيبها، ولهذا فهى كافية لاستظهار الثقافة العربية لتتبوأ مكانها اللائق بها بين الثقافات العالمية بل ويجعلها فى قمة الثقافات كلها. جاء ذلك فى كلمة إعزاز وإشادة للغة العربية نشرها فى مجلة الهلال يقول فيها:" كل غة تغنى أدبها ولو كنت لغة أمة متوحشة لأنها تكفيه لكلى يعبر عن أشواقه وأحزانه وأفراحه، وتعطيه الايحاءات التى تبلغ النهايات فيها. فكيف يمكن أن يقال: أن لغتنا لا تكفى الأديب وهى من حيث مفرداتها وآدابها من أغنى لغات العالم"(١)

ويتابع حديثه محترسا ومنبها إلى ضرورة التزود باللغة الأجنبية ليتم بهذه اللغة كمال ثقافة الأديب فيقول:" وليس معنى قولى أنى أنهى الديب عن تعلم لغة أجنبية فإنها ضرورية إذا أراد الكمال وزيادة المعرفة"

ولهذا فقد أعجب مطران بالشعر العربى سواء كان من الدراسة فى

---

(١)مجلة الهلال عدد يونيو سنة ١٩٢٨م

مدارس الارساليات مثل الكلية البطريركية التى تعلم فيها وكانت تعنى بدراسة الأداب الشرقية إلى جانب عنايتها بالآداب الغربية، أم كان إعجاب مطران بالشعر العربى بتوجيه من أستاذه اليازجى أم كان بتوحيه من والدته "ملكة الصباغ" الشاعرة التى ورثت الشعر عن أمها أم كان بتوجيه من والده الذى كان يحفظ أشعار الجاهلية. على سبق أن بينا.

على كل حال فإننا نستطيع أن نسجل هنا من غير تردد ولا ريب أن الثقافة العربية وخصوصا أشعار العرب الوصافين من أمثال من ذكرنا كانت رافضا مهما من روافد شعره فى الطبيعة، فبدأ تأثره بهم تأثيرا بعيدا عن التقليد الذى يذوب فيه شعر وتتلاشى شخصيته، وإنما كان اهتداء واقتداء. فكان له فضل السبق والتقدم، وكان له فضل التجديد والابتكار. ويطول بى الكلام لو أننى استطردت فى إيراد نماذج للدالة على تأثره بالطبيعة فى شعره بالشعراء السابقين، ولكنى سأكتفى بإيراد بعض النماذج. من ذلك – على سبيل المثال– تأثره بشعر امرئ القيس فى الطبيعة حيث قرأ لأمرئ القيس قوله فى الطبيعة، يحن إلى ديار محبوبته وأمكان بيئته:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

ترى بعد الآران فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل[١]

---

(١)شعراء المعلقات السبع للزوزنى ص٤

نرى مطران يتأثر به فى حنينه إلى مسقط رأسه "بعلبك" وحزنه واساه على رحيله عنها وتذكره عهد الصبا كما فعل امرؤ القيس فيقول فى قصيدة "بعلبك":

إيه آثار بعلبك سلام بعد طول النوى وبعد المزار
ووقيت العفاء من عرصات مقويات أواهل بالفخار
ذكرينى طفولتى وأعيدى رسم عهد عن أعينى منوارى[١]

وقد وصف امرؤ القيس بيئته، وصف الليل والبحر والصخر فقال:

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلى بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بأمراس كتان إلى صم جندل[٢]

وكذلك فعل مطران فصور أيضا البحر والليل والصخر والشمس، فقال:

شاك إلى البحر اضطراب خواطرى فيجبنى برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لى قلبا كهذى الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهى ويفتها كالسقم فى أعضائى
والبحر خفاق الجوانب ضائق كمدا كصدرى ساعة الإمساء
يا للغروب وما به من عبره للمستهام وعبرة للرائى

---

(١)الديوان جـ٢ ص٢١٣

(٢)شعراء المعلقات السبع للزرزنى ص٤٥ - ٤٧

أو ليس نزعاً للنهار وصرعه للشمس بين جنازة الأضواء[١]

كذلك ذاب مطران فى وجدانية عنترة الممتزجة شعوريا بالحياة والحب فى قوله:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منني وبيض الهند تقطر من دمى[٢]

فيجئ مطران ليقول فى ديباجة رائعة وموسيقى شجية حانية:

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء[٣]

ولم يتوقف "مطران" عند شعراء الجاهلية بل اطلع على أفكار ومعانى وصور شعراء آخرين فى الأزمنة المتلاحقة فتأثر بهم. وعلى سبيل المثال نراه يتأثر بأبى تمام فى وصفه للربيع:

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر وغدا الثرى فى حلية يتكسر[٤]

نرى مطران ينسج على منواله فيحشد الالوان الزاهية، لكنه يتخطى التصوير الحسى إلى التأمل فيقابل بين ربيع الطبيعة وربيع الشباب ممثلا فى عمر الزمن فيقول:

عاد الربيع وحبذا عود الربيع إلى الربوع

عود تسر به الخلائق وهو عيد للجميع

---

(١)الديوان جـ١ ص١٨

(٢)معلقة عنترة ص٢٦٨ شرح المعلقات السبع للزوزنى

(٣)ديوان الخليل جـ١ ص١٩

(٤)ديوان أبى تمام جـ٢ ص١٩١ بشرح التبريزى

بسطت سنادسها الريا ض وأورقت فيه الفروع والأمثلة كثيرة موفورة فى ديوان مطران وفى دواوين الشعراء الذين تأثر بهم فى هذا المجال.

٢-ثقافته الأجنبية:

بجانب ثقافته العربية تثقف مطران الثقافة الغربية، بل أننا قد رأيناه ألح بضرورة أن يتزود بها الأديب، إذا أراد كمال ثقافته وتمام معرفته.

تثقف مطران بالثقافة العربية – كما رأينا– وأجاد التركية كذلك إذ أن الشام وقتئذ كانت تحت الحكم العثمانى كغيرها من سائر الوطن العربى. كما أجاد اللغة الأوربية فى المدارس التى تعلم فيها سواء فى زحلة أو فى الكلية البطريركية فى بيروت، وتأثر بالأدب الفرنسى فى هذه الكلية وكانت هذه بداية تأثره بالأداب الأجنبية فى مراحله الأولى من حياته.

وقد كان للأدب الفرنسى أثر كبير فى نفسه تأثر به إلى حد بعيد، ولهذا عندما هاجر إلى فرنسا عكف على الاطلاع على التيارات الأدبية فيها فأعجبه كتابات "هوجو، ورسو، وفولتير، ولامارتين، ودراسين "[١] وأعجب بهذه التيار جميعها، إلا أن اعجابه بالرومانسية كان أقوى لغلبة روح التحرر، ولأنه وجد فيها هوى

---

(١)الأدب العربى المعاصر فى مصر فى العصر الحديث د/شوقى ضيف ص١٢٧

لما فى نفسه الحزينة الباكية التى وجدت من يضاهيها من المأسى واستنزاف الدموع فتأثر مطران بهذا المذهب فى شعره الطبيعى إذ استمد أصوله منه فكان النبع الثرى الذى لجأ إليه مطران لكثير من شعراء الرومانسية لإعجابه الشديد بهذه المدرسة.

وأثنى على شعرائها وسجل هذا الثناء شعرا فى ديوانه، وقد وجدت له ثناء على "موليير" فى قصيد له عنوانها "موليير الروائى الفرنسى الذائع الصيت " قال فيها:

يا أديب الدنيا تحييك "مصر" صلة الفضل فى أولى الفضل إصر
نفعك الناس موجب لك شكرا وقليل فى جانب النفع شكر
كل عصر له خيرته المعالى لتمنى له أنه لك عصر
حبذا فى معاهد العز عهدا لم يفته من المفاخر فخر
عهد شمس الملوك زانته شهب باهرات وأنت فى الشهب بدر
إيه "موليير" أى قارئ سفر لم يقوم تاويده منك سفر[1]

وكان إعجابه " بالفريد دى موسيه "، فقد كانت له مكاه خاصة عنده إذ كان يمثل الاتجاه الباكى فى الطبيعة وجمعت بينهما وشائج قوية فى طلب الحرية، والجرأة والتحليل النفسى والافتنان بالطبيعة. نرى ذلك واضحا من خلال قصيدة "إهداء الديوان" عبر فيها عن إعجابه الشديد به وعطفه عليه: إذ يقول:

---

(١)الديوان جـ٢ ص٢٣٨

عاش هذا الفتى محبا شقيا وقضى نحبه محبا شقيا

وبكى دمع عينه فى سطور جعلته على المدى مبكيا

منشدا للغرام لم يشدو إلا كان إنشاده نواحا شجيا

شاعر كان عمره بيت تشبيه وكان النين فيه الرويا

إن فى نظمه لحسا لطيفا باقيا منه فى السطور خفيا

فادر فى دمعة عليه تعيدى ورق الطرس بالحياة نديا

وتثيرى من روحه نسمات وتفيحى منها عبيرا ذكيا[١]

وقد ظهر هذا الإعجاب بأتباع مناهجهم والاقتباس من موضوعاتهم، ولذلك وجدت له كثيرا من وجوه الشبه بين موضوعات قصائدهم وبين موضوعات قصائده.

وذلك نتيجة تأثره الشديد بهم والإعجاب بأدبهم.

ومن أمثلة ذلك ما ترجمه د/عبد الرحمن عثمان مترجما للشاعر الفرنسى "هيجو" وهو من شعراء الرومانسية، يفتتن بطبيعة مصر الخضرة النضرة فيقول:

مصر الشقراء بسنابلها تنبسط حقولها الفاتنة كأنها الاردية الفاخرة

سهولة تمدها سهول يتجاذبها من شمالها جو بارد ومن جنوبها رمال حارة

وهى لاتفتأ تبتسم لهذا النزاع الذى ينشد بسببها بين البحر والصحراء[٢]

---

(١)الديوان جـ٣ ص٥١٧ - ٥١٨

(٢)مذاهب النقد وقضاياه ص٣٤٣ د/عبد الرحمن عثمان مطبعة شركة الاعلانات الشرقية سنة١٩٧٥م

وجدنا مطران يصور مصر على نحو من الاستقصاء. فيصف الأرض الخضراء والأشجار، والأنهار، والشمس الغاربة ويجعل وكده فى إبراز ألوان الطبيعة الخضراء كالزمرد، ونوار الشجر كالحبب.ز يقول فى "مغرب شمسى فى مصر"

طوينا الحقول سراع المسير على متن متصل كالسبب
تمر بخضراء فتانة لها من زمردها منتقب
إلى مرتمى العين مبسوطة تموج بأشجار عن حبب
وأنهارها تحت نور الزوال تفيض بطاء بمثل الضرب
وللشمس فى المنتهى مغرب رأينا به آية من عجب
رأينا من النعيم طودا رسنا على أفقها وسما واشراب
بجسم ظلام وقمة تبر وسفح تعاريجه من لهب[1]

وفى ديوانه ترجمة حرفية لشعر (لافوتين) الشعر الفرنسى[2] وهو قوله:

ما بين لصوص ولصوص فرق فى الأعلى والأدنى
لصغارهم الموت المزرى وكبارهم الشرق الأسفى

وزار (لامارتين) لبنان وفنن بطبيعتها وكتب عن جبالها، وبحارها، ومنظر ظهور القمر وقمم الجبال وصحرائها، وثلوجها، وشمسها

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص١٧٨

(٢)ديوان الخليل جـ٣ ص٣٩٥

يقول:

(صعدنا نتسلق الجبال فأبصرنا وراءنا البحر يحتجب رويدا رويدا عن الأنظار وقد انبثق الفجر وأطلعت سعفات القمم تذوب على رؤوسها أكواد الثلج فتراءت لنا الصحراء الفسيحة تلمع تحت بخارها النارى كقطعة من الحديد أعارتها النيران فلونها الاحمرار، أو كمحيط عظيم لشواطئ له تسبح فيعه الشمس والجبال والغيوم) ويبدو أن "مطران" قد تأثر بروعة تصوير (لامارتين) فى قصيدته "وداع وسلام " يقول:

هذى رؤوس القمم الشماء نواهضا بالقبة الزرقاء
نواصع العمائم البيضاء روائع المناطق الخضراء
يا حسن هذى الرملة الدعساء وهذه الأودية الغناء
وهذه المنازل الحمراء راقية معارج الغلاء
وهذه الخطوط فى البيداء كأنها أسرة العذراء
وذلك التدبيج فى الصحراء من كل رسم باهر للرائى
وهذه المياه فى الصفاء أنا وفى الازباد والإرغاء
تنساب فى الروض على التواء خفية ظاهرة اللآلآء
ونسم قوابل للراء يشفين كل فاقد لشفاء
ومعشر كالنجم الجوزاء يلتمسون سترة المساء[1]

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٤٢

ولا فرق بين القصيدتين أو اللوحتين وجمالهـا إلا أن (لامـارتين) وصف طبيعة لبنان وهو على الجبل ووصفها مطران من البحر وما عدا ذلك فلا فرق فى روعة التصوير وازدحـام الوصـف بـألوان الطبيعة المشرقة ولا يخفى أن مطران كان وافدا على لبنـان أمـا (لامارتين) فقد أخذ بروعة التصوير وفتنة الطبيعة ومع ذلك أجـاد كل منهما بما يتوافر لهما من عوامل أسهمت فى إخراج القصيدتين على ذلك الوجه.

ثانيا: أثر شعر مطران فى جماعة أبولو

أبولو: اختصار "أبو لون " إله النور والشعر والموسيقى عند اليونان"[١]

واختيار هذا الاسم يدل على تأثر هذه الجماعة بالثقافات الأجنبية.

وقد تكونت هذه الجماعة بعد انفراط عقد جماعة الديوان بسبب الخلاف بين روادها "شكرى والمازنى والعقاد" الذى أدى إلى توقف عبد الرحمن شكرى عن قول الشعر، واتجاه المازنى إلى كتابة المقال والشعر، وإقلال العقاد من قول الشعر وانصرافه إلى السياسة والصحافة التأليف[٢]

وسادت الخصومات الأدبية والمذهبية والسياسية فى الجو الأدبى آنئذ. وفى هذا الجو تطلعت همة الشباب الدكتور أحمد زكى أبو شادى[٣] إلى تكوين جماعة أدبية تعمل على النهوض بالادب العربى

---

(١)انظر مدخل إلى النقد الحديث ص١٥٤د/سعد ظلام مطبعة دار المنار سنة ١٩٨٩ الطبعة الاولى ود/شوقى ضيف فى الأدب المعاصر فى مصر ص٧٠

(٢)تطور الأدب الحديث فى مصر د/أحمد هيكل ص٢٨٩

(٣)ولد أحمد زكى أبو شادى سنة ١٨٩٢م بالقاهرة، وتلقى بها تعليمه الابتدائى والثانوى ثم التحق بمدرسة الطب ومكث بها سنة، ثم انقطع عن الدراسة عاما نتيجة لصدمة عاطفية، وسافر بعدها إلى انجلترا لأتمام دراسته العالية هناك، وظل بها من سنة ١٩١٢م إلى سنة ١٩٢٢م، ثم عاد وقد تخصص فى علمى الأمراض الباطنية والجراثيم. وعمل بعد=

ومتابعة مسيرته نحو التجديد والابتكار حتى لا ينتكص إلى الوراء مرة أخرى كعهده أيام العثمانيين.

ففى سنة سبتمبر سنة ١٩٣٢م أعلن الشاعر المصرى الدكتور أحمد زكى أبو شادى فى القاهرة ميلاد هيئة أدبية سماها " جماعة أبولو" وجعل مركزها القاهرة. وقد جمعت طائفة من أعلام الادباء والشعراء والنقاد وكان من بين هؤلاء: إبراهيم ناجى[1]، وعلى

=عودته إلى الوطن فى الوظائف الحكومية بين القاهرة والاسكندرية وبورسعيد، حيث= =تدرج فى السلم الوظيفى من طبيب "بكتريولوجى" إلى مدير معمل، إلى وكيل لكلية طب الاسكندرية سنة ١٩٤٢م، وفى سنة ١٩٤٦ أثر الهجرة إلى أمريكا واستقر بها حتى مات سنة ١٩٥٥م وكان إلى تخصصه فى الطب و البكتريولوجى" هاويا للنحالة والتعاون مفتوناً للأدب والشعر بصفة خاصة. وقد كان أشرب حب الأدب من أبيه وأصدقاء أبيه، فهو ابن محمد بك أبى شادى المحامى والصحفى صاحب جريدة "الإمام الأسبوعية" و "الظاهر" اليومية وقد كان من اصدقائه ورواد مجلسه الأدبى: اسماعيل صبرى وخليل مطران وحافظ إبراهيم وأحمد محرم.

أقرأ عنه فى: رأى الشعر الحديث لمحمد عبد المنعم خفاجى، والشعر المصرى بعد شوقى لمحمد مندور الحلقة الثالثة ص٢٥ وما بعدها، وجماعة أبولو لعبد العزيز الدسوقى ص١٣٢ وما بعدها، وفى الادب العربى المعاصر لشوقى ضيف ص١٤٥ وما بعدها.

(١)ولد إبراهيم ناجى سنة ١٨٩٨م بالقاهرة، وتعلم بها حتى أتم الدراسة فى كلية الطب سنة ١٩٣٢م وعمل طبيبا فى مستشفيات سوهاج والمنيا والمنصورة، وقد سافر فى مهمة علمية إلى لندن. ثم عامة بعد أن دهمته سيارة هناك وعولج من كسر خطير وعمل طبيبا بمصلحة السكة الحديد ثم رئيسا للقسم الطبى بوزارة الاوقاف وأخيرا أحيل إلى المعاش فى سن=

محمود طه[١]، وأحمد محرم، وكامل الكيلانى، وأحمد ضيف، وعلى

=الخامسة والخمسين فتفرغ لعيادته الخاصة بشبرا، ولم يطل به الأجل بعد ذلك فقد وافته المنية فى يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٥٣م وقد اهتم فى ثقافته الادبية على جهوده الخاصة وهوايته الذاتية، التى تفتحت على ما كان لدى والده من مكتبة غامرة. وظهرت شاعرية ناجى مبكرة، واذكتها حياته فى المنصورة كما أطلقتها تجربة عاطفية مريرة تفتح عليها شباب قلبه، فاكسبته عاطفية ملتهبة وحزنا يغلف بالدعابة. فبدأ ناجى بنشر شعره فى الصحف أواخر العشرينات وهو فى المنصورة. وتابع نشر شعره بعد ذلك بصورة أوضح منذ إنشاء مجلة "أبولو" سنة ١٩٣٢م ونشر أول دواوينه سنة ١٩٣٤م باسم "وراء الغمام" ثم نشر سنة ١٩٥١م ليالى القاهرة" ديوانه الثانى. وبعد وفاته نشر له ديوان ثالث باسم "الطائر الجريح" سنة ١٩٥٣م، قام باختياره من شعر ناجى الذى لم ينشر صديقه أحمد رامى. ثم بدأت وزارة الثقافة جمع تراث ناجى الشعرى ونشره كله فى ديوان جامع يضم ما نشر من شعره وما لم ينشر فظهر هذا الديوان سنة ١٩٦١م وقد اشترك فى إخراجه: محمد ناجة وأحمد رامى وصالح جودت، وقد له مؤلف هذا الكتاب بمقدمة عن "فن ناجى".

أقرأ عنه فى: ناجى -حياته وشعره لصالح جودت، وفى: ديوان "ناجى" سيرة حياة الشعر بقلم صالح جودت"، وفى:الشعر المصرى بعد شوقى الحلقة الثانية ص٥٧ وما بعدها، وفى: الأدب العربى المعاصر فى مصر ص١٥٤ وما بعدها.

(١)ولد على محمود طه بالمنصورة سنة ١٩٠٢م وتلقى بها تعليمه الابتدائى وبعض الثانوى، ثم التحق بمدرسة الفنون التطبيقية وتخرج منها سنة ١٩٢٤م، وعين بعد ذلك بمدرسة المبانى بالمنصورة، ثم نقل إلى القاهرة مديرا للمعهد الخاص بوزارة التجارة فمديرا لمكتب الوزير بها، ثم ألحق بسكرتارية مجلس النواب. ومنذ سنة ١٩٣٨م أخذ يكثر من الرحلات الصيفية إلى أوربا، وقد خرج من خدمة الحكومة مع وزارة الوفد سنة=

العاناتى وأحمد الشايب ومحمود أبوالوفا، وحسن كامل الصيرفى، وغيرهم، وتولى أبو شادى أمانة سر هذه الهيئة الأدبية، وأختير الشاعر أحمد شوقى رئيسا لها.

وفى يوم الاثنين العاشر من أكتوبر سنة ١٩٣٢م عقدت الجلسة الأولى لها برياسة طشوقى" فى داره. دار كرمة ابن هانئ بالجيزة لوضع الأسس العامة لنظامها الادارى والأدبى.

=١٩٤٤م، ثم أعيد سنة ١٩٤٩م وكيلا لدار الكتب، لكنه توفى فى نفس العام، وقد اعتمد على محمود طه فى تحصيله الادبى على هوايته الذاتية وتثقيفه الشخصى وكان على علم بالانجليزية والفرنسية كما يؤكد كتابه "أرواح شاردة"، الذى درس فيه بعض الشعراء الانجليز والفرنسيين وترجم مختارات من آثارهم. وبدأ ينظم الشعر منذ زمن مبكر، لكنه بدأ فى نشره فى أواخر العشرينات فى العصور، وفى أوائل الثلاثينات فى ابلو، ثم فى الرسالة، وقد أظهر أول دواوينه "الملاح التائه" سنة ١٩٣٨م ثم أذاع ديوانه الثانى سنة ١٩٤٠ باسم "ليالى الملاح التائه" وفى سنة ١٩٤١ كتابه "ارواح شاردة"، وأكثر من مقالات عن الأدب الانجليزى والفرنسى والحق به قصيدة فى دخول الالمان باريس، وفى سنة ١٩٤٢ نشر قصيدته القصصية الطويلة طارواح وأسباح" وفى سنة ١٩٤٣ نشر مسرحيته الغنائية أغنية الرياح الأربع وفى نفس العام نشر ديوانه الثالث "زهر وخمر" وفى سنة ١٩٤٥ نشر ديوانه الرابع "الشوق العائد" وفى سنة ١٩٤٧ نشر ديوانه الخامس "شروق وغروب"

اقرأ عنه فى: على محمود طه للسيد تقى الدين السيد، وفى الشعر المصرى بعد شوقى لمحمد مندور الحلقة الثانية ص٨١ وما بعدها، وفى الادب العربى فى مصر لشوقى ضيف سنة ١٩٦١ وما بعدها.

ولم يعش شوقى بعد ذلك إلا اياما معدودات إذ توفى فى فجر يـوم الجمعة الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٢م.

وبعد أسبوع من الحداد اجتمع الاعضاء فى يـوم السـبت الثـانى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٣٢ فى مقر رابطـة الادب الجديـد بالقاهرة واختاروا الشاعر "خليل مطران" رئيسا لها[١]

الأغراض الشعرية لهذه الجماعة :

و كانت الأغراض التي أعلنت منذ ميلادها تقوم على ما يلي:-

ا- السمو بالشعر العربي، و توجيه جهود الشعراء توجيها شريفا

ب- مناصرة النهضات الفنية في عالم الشعر

جـ- ترقية مستوى الشعراء ماديا و أدبيا

و قد أنشأت هذه الجماعات منذ ميلادها مجلة تحمل اسمها و تنشر أدبها، و تذيع أفكارها،و هي أول مجلة أنشأت للشعر و نقـده فـي العالم العربي[٢]

آثارها:

و لم تلبث هذه الجماعة و مجلتها أن أحدثت دويا في الأدب و النقد

---

(١)الأدب العربى الحديث ومدارسه جـ٢ ص٥٦ وما بعـدها د/ محمـد عبـد المنعم خفاجة دار الطباعة المحمدية بالأزهر.

(٢)المرجع نفسه ص ٦١، و مدخل إلى النقد الحديث د/سعد ظلام ص ١٥٥.

و الشعر في مصر وسائر العالم العربي و انضم إليها- مابين عضو و مؤازر-الكثير من الأدباء و الشعراء و النقاد في مصر و سائر العالم العربي و من ثم صار شعراء أبولو يكونون مع رائدهم مدرسة متميزة في الشعر المعاصر لها خصائصها وأرواؤها. وكلهم تأثروا بشعر مطران في الطبيعة وعلى رأسهم أحمد زكي أبو شادي

صلة أبو شادي بمطران و تأثره به :

تأثر أبو شادي بمطران في دعوة التجديد في الأدب و الشعر.

و كان بدء صلته بمطران في ندوة والده الأدبية الأسبوعية،و كان يلتئم شملها مساء كل خميس بداره في حي القبة. و كان مطران واسطة عقد شعراء الندوة، فسمع الشاب الصغير الكثير من شعره، و أنصت لارائه في التجديد و أقبل على الاطلاع عليها بشغف و نفس متوثبة، و أخذ عنه ميله إلي الشعر المرسل و إلى الحركة الرومانسية في الشعر التي يسميها أبو شادي الحركة التحريرية للنظم، و كان مطران من أول الرواد للحركة الرومانسية في الشعر الحديث. يقول أبو شادي:" إن أثر مظران في شعره هو أثر عميق لأنه يرجع إلى طفولته الأدبية، و يصاحبني في جميع أطوار حياتي و إذا كان استقلالي الأدبي متجليا في أعمالي، فهو في الوقت ذاته يمثل الأطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الفنية من ذلك الأستاذ، فما نشوة الشعر المرسل، و لا الشعر الحر، و لا ما بلغنا من الحركة التحريرية للنظم، و لا ما نتناوله من الموضوعات

إلا الرق الطبيعي لدعوة "مطران" و الشخصية الفنية الحرة هي أهم ما يحترمه مطران و هي روح شعري[١]

وقد ظهر أثر مطران فى أبى شادى واضحا ، فقد التفت أبى شادى إلى الطبيعة التفات مطران لها ، فتحدث عن الطبيعة بأشجارها وزروعها وثمارها وورودها وأزهارها وريفها ومياهها وثلوجها ، وطيورها وحيواناتها على النحو الذى فصلته عند مطران فى الفصل الثانى " مظاهر الطبيعة فى شعر مطران"

وقد كان رصيد أبى شادى من شعر الطبيعة رصيدا فخما استقصى فيه كثيرا من مظاهر بيئته المصرية التى تربى بين أحضانها ، ودرج على سهولها ، وفوق روابيها ، حتى إذا ما رحل إلى أوربا لاثم إلى أمريكلا تناول فى أشعاره طبيعة تلك البلاد بجمالها وسحرها وفتنتها وبهائها. وقد حفلت دواوينه على كثرتها بشعر الطبيعة التى افتتن بها افتنانا عظيما كما افتتن بها أستاذه مطران.

وسوف أكشف فى هذا الفصل عن وجود التشابه بين شعر مطران وشعر أبى شادى وجماعته فى الطبيعة بما يؤكد أن شعر الطبيعة عند مطران استطاع أن يغزو القلوب ويشق طريقه نحو عالم الابتكار والتجديد فى الشعر العربى المعاصر. وبذا أكون قد أقمت الدليل على أثر مطران فى شعراء عصره ــ وعلى وجه الخصوص فى جماعة أبولو ومن سار على مبادئها حتى اليوم . وسأقتصر فى

---

(١)أنداء الفجر لأبى شادى ص١١٠ طبع القاهرة الأولى ١٩١٠م

هذه الدراسة على ثلاثة من شعراء هذه الجماعة كان أثر مطران في شعرهم واضحا جليا وهم :

١-الدكتور :١-أحمد زكى أبو شادى ٢-الدكتور: إبراهيم ناجي ٣-على محمود طه

تاركا أثر مطران فى غيرهم من الشعراء لدراسة أخرى.

أما ابو شادى – وقد اعترف بأستاذية مطران له – فنراه يتجه نفس الاتجاه الذى اتجه إليه مطران إلى الطبيعة يبثها آلامه ويشكو إليها همومه وأحزانه.

ففى قصيدة له طويلة نظمها فى "بورسعيد" وهى من أطول قصائده وقد نوع فى قافيتها فاتبع نظام المقطوعات ينتقل فيها من موضوع إلى موضوع وكلها من موج الطبيعة تعكس حالته النفسية.

فى هذه القصيدة يبدو التأثر بمطران واضحا فى صورها ومعانيها ، يقول أبو شادى :

أهلا عروس البحر لم يظفر بها بحر ولا أرض ولا أجواء
تتلفت الدنيا إليك بموضع فذاكما تتلفت الجوزاء
إنى رسول الشعر جئت ممثلا لبنيه مذعنى بك الشعراء
تحيين نقية وعزيزة والسفن شتى فى حماك إماء
فى البحر أم فى البر فى الجو قد راعتك أحلام لها ورجاء[1]

(١)ديوان أطياف الربيع لابى شادى ص١١١ طبع التعاون سبتمبر ١٩٣٣م

وقد سبق أن ذكرت أن " مطران " قد وجه التحية إلى لبنان وطبيعتها ممثلة فى بحرها وجوها وطيورها .. الخ . وجدنلا كذلك أبا شادى يصور طبيعة بورسعيد تصويرا نفصيليا فيجعلها عروسا متزينة بكل أنواع الزينة ولم ينس أن يصور حالته النفسية من خلال الطبيعة وجمالها إذ يجعل نفسه مظهرا من مظاهر طبيعتها فيقول بعد الأبيات السابقة :

الصيف جاء فكنت من أطياره وأتيت يزجين إليك حنين
هذى الشراك لمهجتى منصوبة وأنا قرين عندها وغبين
أهلا شؤراك الحب أكل مليحة أهفو إلى نظراتها وأدين
من نال هذا الاسر من شهدائه فله الحياة ومن عداه دفين[1]

وفى قصيدته " لفتة الوداع " عند شاطىء استانلى فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٤م نراه يلجأ إلى الطبيعة ويهرع إلى أحضانها على عادة الشعراء الرومانسيين ويبثها همومه وأحزانه فيقول :

ومن الغروب وشمسه وهج على وهج أجل
والسحب تسيح فوقها فى قوسها النارى مثلى
حتى تغيب وعندها أهوى إلى شجنى المضل
أهوى كما تهوى البحر العظيم المستقل
متلاطما بالموج فيه ظلم على ظلم وذل

---

(١)ديوان أطياف الربيع لأبى شادى ص١١٢

خذ يا فؤادى وادخر كالنحل فى حسن وذل[١]

وهذه هى المعانى نفسها التى صاغها فى الطبيعة "مطران" مصورا حالته النفسية عند شاطئ الاسكندرية فى قصيدته "المساء"

وفى قصيدة "حنين الكهولة" يبكى أيام الصبى ويتمنى عودتها مع الذكريات فيقول مصورا حركاتها :

سقيا لأطياف الصبا وجمالها حتى تعيد الذكريات شذاها
رقصت بتحديد الصباح وربما لثمت بإشعاع الصباح شفاها
ومضت إلى أقصى الكواكب خلسة فكأنها ما أشرقت لولاها
تاهت ببحر الغيب فوق كوكب كالسفن تحمل للزمان رؤاها[٢]

نرى قصيدة مطران فى " قلعة بعلبك" حوت نفس المعنى . ففيها يبكى مطران صباه وطفولته ويتمنى عودة ذكريات ويصور حركتها بما يوحى بحنينه المشبوب فيقول مطران :

والصبا كالكرى نعيما ولكن ينقضى والفتى به غير دارى
يغنم المرئ عيشه فى صباه فإذا بان عاش بالتذكار
ذكرينى طفولتى وأعيدى رسم عهد عن أعينى متوارى
مستطاب الحالين صفوا وشجوا مستحب فى النفع والإضرار[٣]

---

(١)ديوان فوق العباب لأبى شادى ص١١٤مطبعة التعاون الطبعة الأولى ١٩٣٥
(٢)ديوان الينبوع جـ٢ ص٩٩ مطبعة التعاون الطبعة الأولى ١٩٣٤
(٣)ديوان الخليل جـ٢ ص٢١٢ وما بعدها

بل إن فى عناوين قصائد أبى شادى المنتشرة فى دواوينه المتعددة ما يدلنا على مدى تأثر أبى شادى بمطران. ففى ديوانه "أطياف الربيع" نجد قصائد بعناوين "الربيع" ص١٩٠ "رسالة الربيع" ص١١ ، "الزهرة" ص١٤ "الغروب الثائر" ص٤٢ ، "والوردة الذابلة" ص٨٨ نجد هذه العناوين أو ما يشاكلها عند مطران كما فى قصيدة "باقة أزهار" جـ١ ص٢٧٩ ، "وقصيدة النرجسة" جـ٢ ص٢٩٤ ، "الزنبقة" جـ٣ ص٣٣٣ ، و"وردة ماتت" جـ١ ص٢٥٩ و "بائعات الأزهار" جـ٢ ص٢٩٠ مع تطابق معانى تلك القصائد عند أبى شادى . والمتتبع لشعر كل منهما فى الطبيعة يجد المماثلة واضحة كل الوضوح.

فإذا ما تركنا أبا شادى إلى ناجى وجدنا العلاقة بينهما وبين مطران أقوى وأشد أثرا إذ ظهرت الطاقة العاطفية قوية ، وظهر الاحتفاظ باللفظ والانسجام الموسيقى . ففى قصيدة "على البحر" نراه يقتدى فيها بقصيدة مطران "المساء" حيث حوت الالفاظ والصور الخيالية والتعبير عن الجو النفسى الحزين كما كان عند مطران.

يقول ناجى فى قصيدة له بعنوان " على البحر " :

هل أنت سامعة أنينى يا غاية القلب الحزين
إنى ذكرتك باكيا والأفق مغبر الجبين
والشمس تبدو وهى تغرب شبه دامعة العيون
أمسيت أرقبها على صخر وموج البحر دونى[1]

---

(١)ديوان وراء الغمام لإبراهيم ناجى ص١١٢ دار العودة بيروت ١٩٨٦م

ففى الشطر الاول فى البيت الثانى تمثل قول مطران :" ولقد ذكرتك والنهار مودع" والشطر الثانى "والأفق مغبر الجبين" تمثل فيه قول مطران " والأفق معتكر قريح جفنه" أما البيت الثالث وهو

والشمس تبدو وهى تغرب شبه دامعة العيون

فالتأثر فيه واضح بقول مطران :

والشمس فى شفق يسيل نضاره فوق العقيق على ذرى سوداء
مرت خلال غمامتين تحدرا وتقطرت كالدمعة الحمراء

وأما البيت الرابع فهو يشبه إلى حد كبير قول مطران :

ثاو على صخر أصم وليت لى قلبا كهذى الصخرة الصماء

ثم يواصل ناجى شكواه النفسية وهمومه من خلال فنائه فى الطبيعة وامتزاجه فيقول :

أمسيت أرقبها على صخر وموج البحر دونى
والبحر مجنون العبا ب بهيج ثائره جنونى[1]

ولا تخفى العلاقة المتشابهة فى هذين البيتين فى اللفظ والمعنى والبحر الشعرى فى قول مطران :

ثاو على صخر أصم وليت لى قلبا كهذى الصخرة الصماء
شاك إلى البحر أضطراب فيجيبنى برياحه الهوجاء

---

(١)المصدر نفسه

ويهدى مطران باقة ورد إلى سيدة فيقابل بين جمالها وبين جمال الورد مغلبا جمالها عليه وذلك حين يقول :

هذه تحفة الرياض إلى من فاح فى الشرق طيبها وتأرج
هى بين الحسان ظهرت أنس حسنعها بالحياء منها مسيج
وعجيب جمع المهيمن فيها عزة الورد واتضاع البنفسج[١]

وفى قصيدة "شم النسيم" لإبراهيم ناجى تلك المعانى السابقة يتحقق جمال الطبيعة فى الحلول الشعرى فى الورد ، الصباح . ويكشف عن صفاء روحه وإشراقها ويتلذذ بالمقارنة بين الطبيعة وجمال محبوبته فيفضلها على كل ألوان الطبيعة.

ففى موسيقية رائعة يقول ناجى :

أفدى نهارا طلعت فيه نجم جمال ونجم سعد
إنى لهذى العيون عبد والدهر _إما رضيت-عبدى
إن كان عيد به وورد فأنت عيدى وانت وردى
يا خير من مر فى وجودى إنك كل الوجود عندى
عندى خفى من الأمانى أضعاف ما جئت فيه أبدى
معذرة فى القليل إنى والله أعيا الكثير جهدى
يا فتنتى والهوى ديون حسبى أنى له أؤدى
ما أنت من أنت هل مجيب على سؤال بغير ردى

---

(١)ديوان الخليل جـ١ ص٢٧٩

لم يخلق الله من جمال يلفه فى سنى برد
حسن قصاره من شفاه عطر ثناء وطيب حمد
ويخلق الله معجزات يجمعها كلها بفرد
بسحر عينيك كيد باغ وسحر عينيك للتحدى[١]

وإذا كان مطران قد عنون إحدى قصائده بـ "المساء" فإن ناجى اختار هذا العنوان لإحدى قصائده رمزا للذكرى يقول :

يا غلة المتلهف الصادى يا آيتى وقصيدتى الكبرى
ماذا تركت لدى من زاد إلا استعادة هذه الذكرى
يا للمساء العبقرى وما أبقى على الأيام فى خلدى
نمشى وقد طال الطريق بنا ونود لو نمشى إلى الأبد

ويكثر مطران من الحديث عن "لبنان" ليستعيد ذكرى طفولته فيه مشيدا بجمال طبيعتها فى أكثر من قصيدة كقوله :

لبنان فى أسمى المعانى لم يزل لأولى القرائح مصدر الإيحاء
جبل أناف على الجبال بمجده وأنا شاعره على الشعراء[٢]

وأيضا نجد حنين إبراهيم ناجى إلى مصر وهو فى لبنان يقول :

قلب تقسم بين الوجد والألم هل عند لبنان نجوى النيل والهرم

---

(١)ديوان إبراهيم ناجى ص٢٨٩-٢٩٠.

(٢)المصدر نفسه ص١٥٨

أشكو جواى إلى الروح التى احتضنت نارى وضمت إلى اسقامها سقمى
وقاسمتنى الهوى حتى إذا رحلت ألقت فؤادى بضنك غير مقتسم
ميثاقنا أسطر من مدمع ودم يا طاهر النفحة ذاكر طاهر القسم
يا من أعاتب دهرى إذ أودعه وما عتابى على الاقدار والقسم
إن النوى غربته وهى عالمة إنى رجعت أدارى النار بالضرم[١]

وهكذا يرينا شعر ناجى مدى تأثره بمطران فى شعر الطبيعة ، وقد كان يعده إماما له بل إمام المجددين "إن الجديد الذى أتى به المجددون إنما هو من فضله وقصائده التصويرية متفردة منقطعة النظير[٢]

هذا وقد رثاه بشعر يدل على مدى الاعتراف بهذه الاستاذية إذ يقول :

يا نفس إن راح الخليل وعنده ورد الخليل فعجلى برحيلى
حملوا على الأعواد فنا خالدا وارحمتاه لكوكب محمول
هو مصرع للعبقرية روعت فى عرشها والتاج والإكليل[٣]

فإذا ما طوينا صفحة كلس من "أحمد زكى أبى شادى وإبراهيم ناجى" ورحنا نبحث عن أثر شعر الطبيعة عند مطران ومدى تأثر

---

(١)ديوان إبراهيم ناجى ص٢٨٧ - ٢٨٨

(٢)مجلة أبولو جـ٤ ص٣٥٧ ديسمبر ١٩٣٥م

(٣)ديوان إبراهيم ناجى ص٣٢٧

الشاعر على محمود طه به فإنا نجده تأثر بمطران كما تأثر زميلاه ، بل وباقى شعراء جماعة ابولو.

والمتأمل فى شعريهما فى هذا الجانب يحس بأثر شعر مطران فى شعر على محمود وبالمثال يتضح المقال .

لقد علمنا أن مطران اعتبر أن الطبيعة مصدر كل فن وأنها وحى الشاعر والناثر فقال :

بعد أن جلى مظاهر الطبيعة :

كل هذه الآيات مبعث وحى للنظيم المجاد أو النثير
كل هذه الآيات تؤخذ عنها رائعات التمثيل والتصوير
كل هذه الآيات يجمع منها نغم الحزن أو نشيد السرور
معجزات فى كل آن تراها باهرات التنويع والتعبير[1]

نجد "على محمود طه" يقول :

وأنا الشاعر الذى أفتن بالحسن وأذكت يد الحياة افتتانه
معهدى هذه المروج وأستاذى ربيع الطبيعة الفنان

ثم يأخذ فى وصف مظاهر الطبيعة على غرار وصف مطران لها :

وأزاهير حانيات على النهر يقبلن فى الضحى شطآنه
ناشرات وشى الربيع عليها ساكبات فى لجة ألوانه

---

(١)ديوان الخليل جـ٢ ص٢٢٤

يستمعن للخرير المناجى ويرتلن للربى تحنانه
معبد للطيور راهبة الليل وناقوسه الصبا الرنانة[١]

ويتفانى مطران فى وصف ضوء البدر وينظر إلى معانى الحسن فى نظرة تأملية فلسفية حين جعله يفنى كما تفنى الخلائق وتفنى ألوان الطبيعة فى بعضها ويصير فيها ذرة منها.

وذلك حين يقول :

وليلة بدر صفا جوها وباح بسر السكون الحفيف
وألقت يسمع ظلال الريا ض النحوى ، قلوبهن تطيف
رأيتك خلابة للعقو ل فى متجلى سنى منيف
فخيلها البدر روحا بدت على البعد فى حلة من شفوف[٢]

ويجئ على محمود طه وينسج على هذا المنوال ويقول :

تساءل الماء فيك والشجر من أين يا "كان" هذه الصور؟
البحر والحور فيه سابحة رؤى بها بات يحلم القمر
أطل والضوء راقص غزل دعاء قلب وشاقه بصر
يهمس فيما يراه من فتن آلهة هؤلاء أم بشر؟

---

(١)ديوان على محمود طه ص١٤٠ "الملاح التائه" طبع دار العودة بيروت يناير ١٩٧٢

(٢)ديوان الخليل جـ٢ ص٣٢٨

يقفز من لجة إلى حجر كأنما مس روحه الضجر
معربدا لا يريم سابحة إلا ومنه بثغرها أثر
من كل حواء مثلما خلقت يعجب منها الحرير والوبر
ألقته عنها رقائق ونضت جسما تحامى نداءه القدر
والسابحات الحسان حولهمو كأنهن النجوم والزهر
والضوء فوق الخصور منهمر والماء تحت الصدور مستعر
ما زلن والبحر فى توثبه يرغى كما راغ قلبه خطر
حتى يرى وهو فضة ذهب تمازج الليل فيه والسحر[١]

ويطوف مطران على الزهر والفجر يفتح جفونه فيبصر زهرة تبكى بدموع الفجر المتهللة فير ق لها ويقول فيه "الوردة والزنبقة"

وروضة إيناس ولهوى تحولت فلا حسنها يسلى ولا الشدو يشغل
تفقدتها والفجر يفتح جفنه كما إنتبه الوثنان والجفن مثقل
فطفت على الأزهار فى أمن نومها أنبهها جذبا إلى فتجفل
إلى أن بدت وردة مستكينة كإن دموع الفجر فيها تهلل[٢]

وفى قصيدة "الموسيقية العمياء" نرى الشاعر على محمود طه ولع بوصف الكواكب والفجر والزهر ليبدى زينة الطبيعة ويبعث فيها

---

(١)ديوان على محمود طه "شروق وغروب" ص٧١٦-٧١٩ دار العودة بيروت ١٩٧٢

(٢)ديوان الخليل جـ٢ ص٤٦٦

الحياة حين يجعل للريح أنينا وللفجر يدا فيقول :

إذا ما طاف بالأرض شعاع الكوكب الفضى
إذا ما أنت للريح وجاش البرق بالومض
إذا ما فتح الفجر عيون النرجس الغض
بكيت لزهرة تبكى بدمع غير مرفض[١]

وهكذا سار أعضاء الجماعة على نهج مطران وتتبعوا خطاه فى تناوله الطبيعة فتناولوها التناول نفسه وصاروا على الدرب الذى سلكه.

وحسبى ما قدمت من نماذج ففى اشعارهم وفرة وفيرة فيها التشابه واضح والاثر باد ظاهر.

ويبقى إن نقول أن هؤلاء الشعراء سواء تأثروا بمطران أو باتجاهات أجنبية عربية أو غربية لم يتأثر بها مطران ، أو ملكوا أدوات التعبير التى توافرت لهم جميعا . أو كانت لهم خصوصياتهم الوجدانية ، فخالفوا فى تناولهم مظاهر الطبيعة فى أحايين كثيرة ، إلا أنه من الطبيعى أن يكون مطران صاحب الأثر الأسبق حيث قدم النماذج الفنية والمثل العليا فى الطبيعة والأدوات التعبيرية من حيث الشكل والمضمون قبل أن تنضج ثمار ثقافتهم الأدبية حيال طفولتهم الشعرية وفى وقت كان مطران قد حدد مذهبه الشعرى وعرضه فى قصائده الحافلة بنزعات التجديد فى الطبيعة وغيرها.

---

(١)ديوان على محمود طه "أفراح الوادى" ص٣٤٠

الخاتمة

وبعد ...

فهذا بحثى عن " الطبيعة فى شعر مطران ط أقدمه للجنة العلمية الدائمة "قسم الأدب والنقد" بجامعة الأزهر.

مهدت له بالحديث عن الطبيعة . من حيث ارتباط الانسان بها ومن حيث كانت مصدر إلهام للشعراء منذ نشأة الشعر العربى . وقد أقتضى ذلك أن أتتبع -بايجاز- شعر الطبيعة منذ الجاهلية حتى العصر الحديث باحثا عن أصالة شعر الطبيعة فى الشعر العربى مقتصرا على مشاهير الشعراء فى كل عصر.

وقد بدا لى أن شعر الطبيعة أصيل فى الأدب العربى ، فقد عرفه الشعراء فى جميع عصوره ، وعنوا به ، وكان من مظاهر عنايتهم به أن استهلوا به قصائدهم على نحو ما اصطلح عليه باسم المقدمة الطلالية.

بيد أن عنايتهم به كانت من حيث عنايتهم بالتشبيه والاستعارة والكناية ، وسائر ألوان المجاز والمحسنات البديعية أكثر من عنايتهم بروح الطبيعة ذاتها فلم يكن وصفهم لها-فى الغالب- إلا وصفا حسيا للمرئيات دون الحالات النفسية ودون إبراز تجارب فنية فى الناحية المتعلقة بالطبيعة.

وقد أوضحت أن الحديث عن الطبيعة بهذا المعنى يدخل فى باب الوصف الذى يعد من ألمع الأغراض الشعرية ، إذ أن وصف الطبيعة بخاصة من أهم ما يهدف إليه الشعراء . وقد خلصت من هذا التمييز بنتيجة مؤداها أن السمة الغالبة لشعر الطبيعة قبل ظهور شعر مطران فى هذا الجانب كان تقليدا أو معارضة لما كان عليه الشعر فى العصور السابقة إذ ظل التصوير الحسى هو الأعم الاغلب حتى اقتحم مطران ساحة الشعر فجعل من الطبيعة روحا وعقلا مازجا روحها بروحه مندمجا معها يناجيها وتناجيه.

ثم أدرت الحديث عن صلب البحث فقسمته إلى أربعة فصول.

ولما كان مطران قد أحدث جديدا فى الشعر العربى فى مضامينه وأشكاله لذا جعلت الفصل الأول "مطران : حياته وشعره"

فتحدثت عن نشأة مطران العربية وبيئته اللبنانية ومدى تأثير هذين فى شاعريته فأصله العربى جعله يتقن العربية ، ونشأته فى لبنان التى كانت عى صلة وثيقة فى هذه الأونة بالثقافة الغربية . فكانت ثقافته مزيجا من الثقافتين العربية والغربية.

ومن هنا انعكست هاتان الثقافتان على شعره. كما كان لرحلاته وهجرته من موطنه إلى مصر وغيرها من البلاد الأجنبية ثم استقراره فى مصر أخيرا ، كان لكل ذلك أثر فى تعلقه بالطبيعة

يبثها آلامه ويشكوا إليها غربته مندمجا معها فى رومانسية حزينة

وإذ تعلق مطران بالطبيعة . ولذا خصصت الفصل الثانى للحديث :"عن مظاهر الطبيعة فى شعره" وقد تتبعت شعره فى الطبيعة من خلال ما أثبته فى ديوانه وما كتبه فى المجلة المصرية أو ما نقله عنه معاصروه وأبناء جلدته مما لم يوجد فى الديوان ، مثل قصيدة "تذكار" وقصيدة "دمعة" ، وقصيدة "الربيع" مما أثبته له الاستاذ إيليا حاوى فى كتابه "خليل مطران شاعر القطرين" بأجزائه الاربعة فوجدته قد تناول الطبيعة فى جميع مظاهرها ، وقد أجملت تلك المظاهر فى :

النباتات : ماثلة فى الأزهار والورود والرياحين ، والرياض وإن يك هذا المظهر كان مادة للشعراء خاصة فى العصرين العباسى والاندلسى . إلا أن مطران اهتم وطور فلم يعنى بالاصباغ والالوان ، وإنما كانت عنايته فى المقام الاول بالمعنى يبث فيه الحياة.

كما تحدثت عن المياه . تحدثت عن البحار والانهار والوديان

واستتبع ذلك الحديث عن السهول والوديان . وشخصها واستنطقها وشكا إليها حاله كما رأينا فى قصيدته "المساء" حين خلع على البحر صفات الانسانية وكان للكونيات نصيب كبير فى شعره الطبيعة فرأيته يلجأ إلى الشمس والقمر والنجوم والكواكب والثريا

والليل والضياء يصب فيها خلجاته ويفنى فيها ذاته.

ولم ينس الطيور كمظهر من مظاهر الطبيعة ، وقد وجدته يتخير من الطيور ما كان رشيقا ريقيقا ، فلم يتحدث عن الغراب ولا الصقر وإنما تحدث مع الحمام والعصافير والكروان وما مثالها فى مشاركة وجدانية

وأما الطبيعة الحيوانية فقد كان قليل الحديث عنها ، وما جاء فى شعره عنها إنما جاء ليستكمل به صورة ، أو يستجلى به منظرا ، أو يتمم به فكرة.

ولم يفتنى أن أتحدث عن السمات الفنية لشعره فى هذا الجانب فعقدت بذلك الفصل الثالث . وجعلت عنوانه "الخصائص الفنية لشعره فى الطبيعة " فانتظم هذا الفصل الحديث عن : الالفاظ والاساليب ، والمعانى والافكار ، والخيال والصور الفنية عنده ، ثم موسيقاه الشعرية خارجية ماثلة فى الوزن والقافية وتنوعها وداخلية ماثلة فى المحسنات البديعية ، والوجدانات النفسية.

ثم ختمت الفصل بالحديث عن الوحدة الفنية وهى ما تشمل الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية.

وقد رأيت أن هذه السمات تآخت وتآلقت حين رقت ألفاظه ودقت معانيه وتسلسلت أفكاره ، وعذبت موسيقاه واهتم بالخيال اهتماما كبيرا . وقد استطاع بخياله الزاخر أن يبرز صوره الفنية على لوحة

الفن الشعرى مستكملة جميع الجوانب الفنية.

وقد رأيت استكمالاً لجوانب البحث أن أختمه بالحديث عن : " تأثر مطران وتأثيره فى شعر الطبيعة " وقد استبان لى أنه تأثر فى شعره فى هذا الجانب بعاملين هما : الشعر العربى ، والشعر الغربى . فسجلت أنه تأثر بالفحول من الشعراء فى العصر الجاهلى والعباسى والاندلسى ، واكتفيت بتأثره بأمرئ القيس طرفه فى العصر الجاهلى ، وأبى تمام وابن خفاجة فى العباسى والاندلسى . وإن كان الواقع أنه تأثر بغير هؤلاء وهؤلاء.

كما رأيت أنه تأثر بشعراء فرنسا عامة وعلى الأخص : " الفريد دى موسيه وموليير ومارتين "

أما عن أثر شعره الطبيعى للشعراء فأظهر من تأثر به جماعة أبولو . ولقد قصرت حديثه عن شعراء هذه الجماعة على ثلاثة منهم وهم : أحمد زكى أبى شادى وإبراهيم ناجى وعلى محمود طه حيث بدا أثره فى هؤلاء الثلاثة أكثر من غيرهم.

وبعد ...

فهذا جهدى وهذه ثمرة ما توصلت إليه من نتائج

أرجو الله أن أكون قد وفقت

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

وعلى الله قصد السبيل والحمد لله رب العالمين

دكتور

محمود جمعة أمين

ثبت بمصادر البحث ومراجعه

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : المطبوعات

١- الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق جـ٣ د/على على صبح طبع الجريسى للكمبيوتر ١٩٩٨م

٢- الأدب العربى الحديث ومدارسه د/محمد عبد المنعم خفاجى. دار الطباعة المحمدية بالأزهر بدون تاريخ

٣- الأدب العربى المعاصر فى مصرد/شوقى ضيف .دار المعارف ١٩٦١م

٤- الأدب العربى وتاريخه فى عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث د/محمود رزق سليم طبعة دار الكتاب العربى ١٩٥٧م

٥- الأدب المقارن د/محمد غنيمى هلال طبع مطابع الشعب ١٩٦٤م الطبعة الثالثة

٦- الإسعاد شرح بانت سعاد د/مصطفى محمد عمارة طبع عيسى البابى الحلبى بالقاهرة بدون تاريخ

٧- أصول النقد الأدبى الحديث. د/ أحمد الشايب .دار النهضة المصرية ١٩٣٧م

٨- إسماعيل أدهم ناقدا. د/أحمد إبراهيم الهوارى . طبع دار المعارف ١٩٤١ الطبعة الأولى

٩- اتجاهات وآراء النقد الحديث دممحمد نايل . مطبعة العاصمة . شارع الفلكى بالقاهرة ١٩٦٥

١٠- تطور الأدب الحديث فى مصر د/أحمد هيكل طبع دار المعارف ١٩٩٤م الطبعة السادسة

١١- تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر . د/ حلمى على مرزوق . طبع دار المعارف ١٩٦٦م الطبعة الأولى

١٢- حافظ وشوقى د/ طه حسين . مطبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٩٧٣م

١٣- خليل مطران أروع ما كتب مطبعة دار الكتب ١٩٦٠م . محمد صبى السربونى

١٤- خليل مطران شاعر الاقطار الادبية د/ فوزى عطوى . طبعة دار الفكر العربى ١٩٨٩م

١٥- خليل مطران شاعر القطرين لإيليا حاوى . الأجزاء الاربعة طبع دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٨م

١٦- ديوان أبى تمام شرح التبريزى جـ٢ طبع دار المعارف ١٩٨٢م تحقيق محمد عبده عزام

١٧- ديوان أنداء الفجر لأبى شادى .طبع القاهرة الطبعة الأولى ١٩١٠م

١٨- ديوان ابن خفاجة طبع دار صادر بيروت بدون تاريخ

١٩- ديوان ابن الساعاتى طبع الجامعة الأمريكية . بيروت ديسمبر ١٩٣٨ تحقيق أنيس المقدسى

٢٠- ديوان حسان بن ثابت طبع دار المعارف ١٩٧٤ تحقيق سيد حنفى حسنين

٢١- ديوان الخليل-خليل مطران طبع دار مارون عبود بيروت ١٩٧٥م

٢٢- ديوان على محمود طه دار العودة بيروت يناير ١٩٧٢م

٢٣- الديوان فى الأدب والنقد عباس العقاد بالاشتراك مع المازنى

طبع دار الشعب ١٩٧٢م الطبعة الثالثة.

٢٤- ديوان الينبوع لأبى شادى مطبعة التعاون ١٩٣٤ الطبعة الأولى

٢٥- ديوان مجنون ليلى جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج . مكتبة مصر للطباعة بدون تاريخ

٢٦- ديوان وراء الغمام لإبراهيم ناجى دار العودة بيروت ١٩٨٦

٢٧- شرح المعلقات السبع للزوزنى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بالقاهرة بدون تاريخ

٢٨- شعر الطبيعة فى الأدب العربى د/ سيد نوفل طبع دار المعارف ١٩٧٨

٢٩- شعراء معاصرون اسماعيل أدهم جـ٢ ص٢ طبع دار المعارف ١٩٨٤م تحقيق وتقديم د/ أحمد ابراهيم الهوارى

٣٠- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى د/محمود رزق سليم مكتبة الآداب الطبعة الأولى.

٣١- لسان العرب لابن منظور طبع دار المعارف ١٩٨١م

٣٢- مدخل إلى النقد الحديث د/ سعد ظلام مطبعة دار المنار ١٩٨٩

٣٣- مدرسة ابولو الشعرية فى ضوء النقد الحديث د/ محمد سعد نشوان طبع دار المعارف ١٩٨٢م

٣٤- مذاهب النقد وقضاياه د/ عبد الرحمن عثمان مطابع

الاعلانات الشرقية ١٩٧٥م طبعة أولى

٣٥- محاضرات عن خليل مطران -محمد مندور طبع دار نهضة مصر ١٩٦٤م

٣٦- النقد الادبى لسهير القلماوى طبع دار المعارف ١٩٥٨

٣٧- الوسيلة الادبية للشيخ حسين المرصفى طبع مطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز الطبعة ١٢٩٢م

ثالثا : الدوريات :

١-مجلة الآداب بيروت يناير ١٩٧١م

٢-المجلة المصرية ديسمبر ١٩٣٥م

٣-المجلة المصرية يونيو ١٩٠٠م

٤-المقطم مايو ١٩١٤م